

القرآن والتفسير

آيات
دروس رمضان

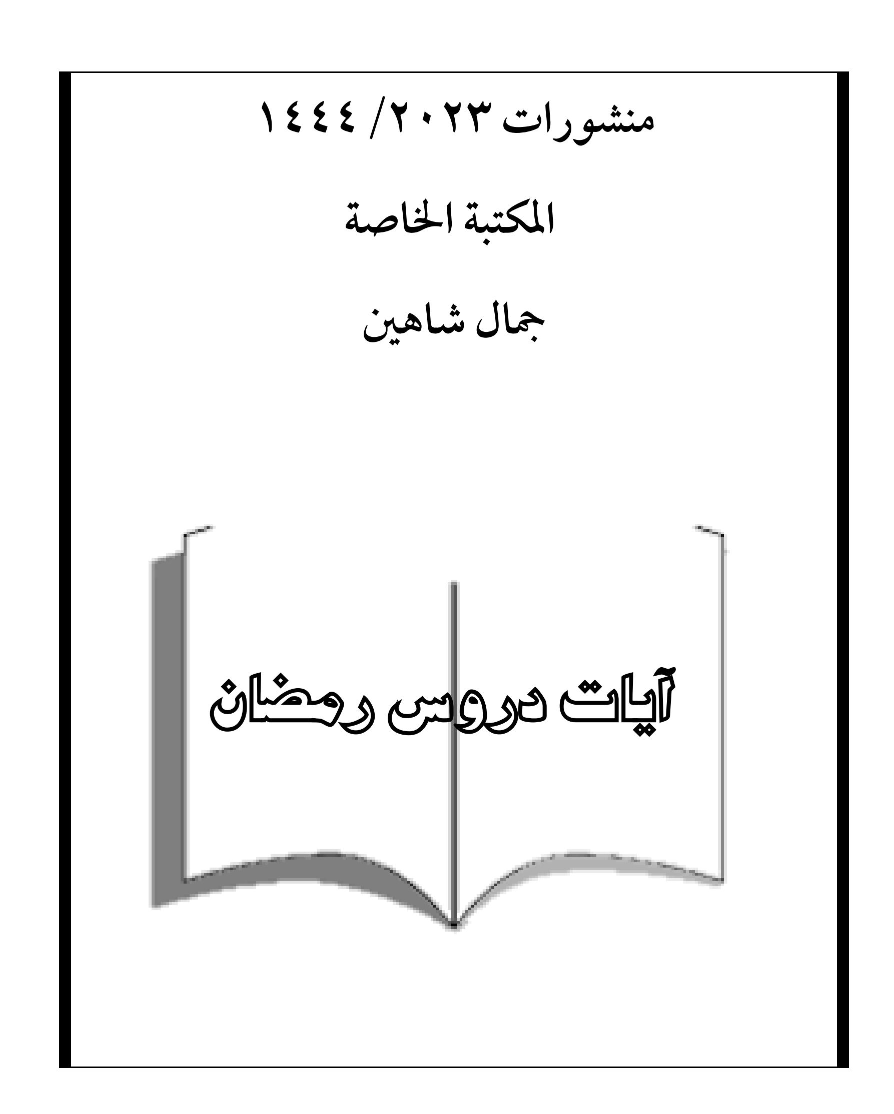
جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة ٢٠٢٣

منشورات ٢٠٢٣/ ١٤٤٤

المكتبة الخاصة

جمال شاهين



آيات دروس رمضان

إعداد وتنسيق

جمال شاهين

الطيبات والمحرمات الأربعة

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِّ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)} [البقرة]

وجه الخطاب هنا إلى المؤمنين خاصة، لأنهم أحق بالفهم، فأباح لهم أن يأكلوا من رزق الله الطيب الطاهر، وأمرهم أن يشكروا نعمة الله عليهم، إن صح أنهم يخصونه بالعبادة، ويقرون أنه مولى النعم.

وفي الأثر عند الطبراني قَالَ اللهُّ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنِّي وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ فِي نَبَأٍ عَظِيمٍ، أَخْلَقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ غَيْرِي» ولما أباح تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب، وكانت وجوه الحلال كثيرة، وبيّن لهم ما حرم عليهم، لكونه أقل، بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر.

وتعريف المحرَّم: هو ما طلب الشّارع الكف عن فعله طلباً؛ كقوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ}، أو نهياً؛ كقوله: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى}، أو الأمر باجتنابه: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ} فاجتنبوه، أو أن يترتَّب على الفعل عقوبة مثل الّذين يرمون المحصنات.

والمحرم الحقيقي:

١ – إنّما هو تناول الميتة، لاحتباس الدم فيها وتوقع التضرر بها، لفساد لحمها وتلوثه بالأمراض غالبا، فهي محرمة لاستقذارها ولما فيها من ضرر . أي: ذهبت منها الحياة، وانتهت؛ أي: خرجت روحها.

٢ – وتناول الدم المسفوح، لأنه ضارّ، وتأباه النفوس الطيبة، فهو حرام لقذارته وضرره أيضا.

{وَالدَّمَ}: الدّم المسفوح السّائل محرم شربه، أو طبخه، أو استعماله كغذاء بأي شكل، ويستثنى من ذلك الدّم المختلط باللحم، أو العروق.

٣ – وأكل لحم الخنزير، لأنه ضارّ، وخصوصا أثناء الحر، ولأن النفوس الطيبة تأباه، لأنه حيوان

قذر لا يأكل غالبا إلا من القاذورات والنجاسات، فيقذر لذلك، ولأن فيه ضررا، لحملة جراثيم شديدة الفتك، ولأن فيه كثيرا من الطباع الخبيثة، وولوع بالنواحي الجنسية ولا يغار على أنثاه، وكسول بطبعه، والمتغذي يتأثر بتلك الطبائع، وتنتقل إليه بيوض الدودة الوحيدة الحلزونية التي قد تكون في خلايا عضلات جسمه، ولو تربى في أنظف الحظائر.

٤ – وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى عند الذبح، لأنه من أعمال الوثنية، وفيه إشراك واعتماد على غير الله. وكان العرب في الجاهلية يذبحون للأصنام، ويقولون: باسم اللات والعزى، فهو حرام صيانة لمبدأ الدين والتوحيد وتعظيم الله. وحصر التحريم في هذه الأصناف مستفاد من قوله تعالى: {إِنَّما حَرَّمَ.}. لأن {إِنَّما} تفيد الحصر، تثبت ما تناوله الكلام وتنفي ما عداه.

ويضاف لهذه المحرمات ما حرم في سورة المائدة (الآية: ٣) وما حرمه رسول الله ﷺ من أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، ولحوم الحمير الأهلية.

لكن من ألجأته الضرورة (وهي أن يصل إلى حد لو لم يتناول المحظور هلك) إلى أكل شيء مما حرم الله، بأن لم يجد غيره، وخاف على نفسه الهلاك، ولم يكن راغبا فيه لذاته، ولم يتجاوز قدر الحاجة، فلا إثم عليه، للحفاظ على النفس، وعدم تعريضها للهلاك، ولأن الإشراف على الموت جوعا أشد ضررا من أكل الميتة والدم وقيد الله جواز الأكل من المحرمات بقوله: {غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ} لئلا يتبع الناس أهواءهم في تفسير الاضطرار، فيزعم الواحد أنه مضطر وليس بمضطر، ويتجاوز قدر الضرورة أو الحاجة مستغلا الظرف الطارئ، فينقاد لشهواته.

{فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}: أي: أُلجِئَ، أو أُكرِه بحكم الضّرورة، أو الضّرر؛ كأن خاف على نفسه الهلاك بعد أن استنفد الأسباب فيحلُّ عندها الأكل من الميتة، أو الدَّم، أو لحم الخنزير، أو ما أهل به لغير الله على شرطين:

الشّرط الأوّل: {غَيْرَ بَاغٍ}: أي: لا يأكل فوق حاجته، أو فوق ما يسد رمقه.

الشّرط الثّاني: {وَلَا عَادٍ}: أي: لا يأكل من هذه المحرمات، وعنده أطعمة أخرى تسد رمقه.

فلا ذنب عليه، ولا معصية، ولا حرج أن الله كثير المغفرة يغفر الذّنوب مهما عظمت، أو كثرت،

ولو كانت مثل زبد البحر، والغفر هو الستر، وللضرورة والحاجة ضوابط شرعية، والّذي يقرر الضّرورة والحاجة في الأمور المستجدة هم علماء الأمة الموثوق بدينهم، وعلمهم مع أهل الخبرة والاختصاص.

إن الله يغفر لعباده خطأهم في تقدير الضرورة، لأنه متروك إلى اجتهادهم، رحيم بهم، إذ أباح لهم تناول المحرّمات حال الضرورة، ولم يوقعهم في الحرج والعسر.

الفقه والأحكام:

أكد الله في هذه الآية إباحة الأكل من الطيبات، وخص المؤمنين هنا بالذكر تفضيلا لهم وتنويها بهم، والمراد بالأكل: الانتفاع من جميع الوجوه. فيجوز الانتفاع بكل ما في البر والبحر من نبات وحيوان وأسماك وطيور إلا ما حرمه الله في هذه الآية وآية المائدة (٣) وما ذكره الفقهاء بالاعتماد على الثابت في السنة النبوية. ويلاحظ أن المذكور في سورة المائدة داخل تحت اسم الميتة: وهي كل ما مات من غير ذبح شرعي، سواء أكان مخنوقة أم موقوذة أم متردية أم نطيحة أم أكلها السبع ولم تدرك حية فتذبح. وكذا ما ليس بمأكول فذبحه كموته كالسباع وغيرها.

وقد خصصت هذه الآية بقوله ﷺ : عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ» حم

وروى البخاري ومسلم عن أبي ثعلبة الخشني : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ.

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ – ﷺ – عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَأَكْلِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ طيالسي

عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ أَكْلِ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ، وَعَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ، وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ» ابن ابي عاصم

قَالَ جَابِرٌ: فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَفَأْنَا الْقُدُورَ، فَقَالَ: " إِنَّ اللهَ سَيَأْتِيكُمْ بِرِزْقٍ هُوَ أَحَلُّ لَكُمْ مِنْ ذَا، وَأَطْيَبُ مِنْ ذَا "، قَالَ: فَكَفَأْنَا يَوْمَئِذٍ الْقُدُورَ وَهِيَ تَغْلِي، فَحَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ الْحُمُرَ

الْإِنْسِيَّةَ، وَلُحُومَ الْبِغَالِ، وَكُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَكُلَّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطُّيُورِ، وَحَرَّمَ الْمُجَثَّمَةَ، وَالْخُلْسَةَ، وَالنُّهْبَةَ " حم

أنواع البر

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)} [البقرة]

المناسبة: أدَّى تحويل القبلة إلى المسجد الحرام إلى فتنة كبرى، وخلاف، وبلبلة بين أتباع كلّ ملّة، وأخرى، وكلّ ملّة دعت إلى اتباع قبلتها، سواء كانت المسجد الحرام، أو بيت المقدس، أو المشرق، أو المغرب. حتّى نزلت هذه الآية فأبان الله -جل وعلا- للناس كافة: أنّ مجرد التّوجه إلى أي قبلة ليس في ذاته هو البر الحقيقي المقصود، ثمّ أبان البر الحقيقي .

والبر: اسم جامع لكلّ خير ولكلّ طاعة، وعمل صالح، يؤدي إلى خلق حميد وقربى إلى الله.

{أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ}: أي: ليس البر هو مجرد تولية الوجه في الصّلاة نحو المسجد الحرام، أو بيت المقدس، أو المشرق، أو المغرب.

البر {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ}: الإيمان الّذي يتضمن توحيده في ألوهيته، وربوبيته، وفي أسمائه وصفاته من دون تشبيه، أو التحريف، أو تعطيل، أو تكييف، وعبادته، وطاعته بإخلاص ومحبة.

{وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}: أي: الإيمان بكلّ ما أخبر به الله -سبحانه وتعالى- في كتابه، أو أخبر به رسوله -ﷺ -، الإيمان بأحداثه المروعة، وأهواله، ويشمل البعث، والحشر، والحساب، والعرض، والموازين، وتطاير الصّحف، والصّراط، والجنة، والنّار.

والإيمان بأنّ لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ولهم وظائف، ولهم صفات وأعمال نؤمن بها من دون زيادة، ولا نقصان، ولا تحريف.

والإيمان بالكتب الّتي أنزلها الله على أنبيائه، ورسله، ومنها: القرآن، والتّوراة، والإنجيل،

والزّبور، والصّحف الّتي أنزلها على إبراهيم، وموسى، والكتب الّتي أنزلها على سائر الرّسل، ولم يخبرنا بها.

والإيمان بالأنبياء : ومنهم الرّسل فكلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي رسول، وقد ورد ذكر أسماء بعضهم في القرآن، والبعض الآخر لم يذكر، فالإيمان بهم يأمرنا أنّ نؤمن بهم جميعاً، ولا ننكر نبوَّة أحد منهم، ولا رسالته، ونؤمن أنّ كلّاً منهم أدَّى أمانته، وبلَّغ رسالته... وأنّ الله أمدَّهم بالمعجزات، فقد قال سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ} ، ثم ينتقل وصف البر من الأمور العقدية إلى الأمور المادية، ومنها:

{وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى}: {وَآتَى}: معناها أعطى المال على حبه، والهاء تعود إلى حب المال، أو تعود إلى حب الإيتاء، فيصبح معناها: أعطى المال، وهو يحب المال، أو يحب أن يتصدق به، أو كلاهما معاً، والإيتاء غير العطاء.

وآتى المال، ولم يقل يعطي المال؛ لأن العطاء: دليل التّملك، دون الإيتاء، وأنت حين تؤتي المال، ولا تقول تعطي؛ لأنك إذا قلت: تعطي؛ أي: يصبح المعطى له مالكاً له، وفي الحقيقة هو لا يملك المال، وإن أعطيته؛ لأنّ المال هو مال الله، والملكية هي ملكية غير حقيقية؛ لأنّك سوف تموت، وتتركه لغيرك، أو تدفعه زكاة، أو صدقة، فكلمة تؤتي أحق وأفضل من استعمال تعطي، ثم إن هناك أمراً آخر قال سبحانه: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ}: ولم يقل: آتى المال وهو يحبه؛ لأنّ استعمال على أفادت على تمكُّن حب المال في قلبه وشدة التّعلق به.

إذن فعلاً هو يحب المال؛ كقوله سبحانه: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وقد تأتي بالمعنى الآخر آتى المال على حبه؛ أي: أعطى المال كصدقة، وهو يحب الصّدقات؛ لأنّ حب ما عند الله من ثواب أعلى وأفضل من حبه لفطرة المال وجمعه، والرّأي الأوّل أقوى.

{ذَوِي الْقُرْبَى}: أوّل من تؤتي المال ذوي القربى، الأقارب جميعاً الأقرب فالأقرب؛ لأنه كما جاء في حديث مسند أحمد : عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: " مَعَ الْغُلَامِ عَقِيقَتُهُ، فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا، وأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى " وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: " صَدَقَتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ

صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ .

{وَالْيَتَامَى}: جمع يتيم، وهو من فقد أباه، ولم يبلغ مبلغ الرجال؛ أي: الحلم.

{وَالْمَسَاكِينَ}: جمع مسكين، وهو المحتاج الّذي له مال لا يكفيه.

{وَابْنَ السَّبِيلِ}: السّبيل: هو الطّريق، وابن السّبيل: هو ابن الطّريق؛ أي: ليس لديه مكان يأوي إليه؛ إلّا الطّريق؛ أي: رجل منقطع في سفره، وقد يكون ابن السّبيل ذا مال في بلده، إلّا أنّ سفره قطعه عن ماله، وباعد بينه وبين أهله، وقد يشمل هؤلاء الّذين يعيشون في الطرقات، والله أعلم.

{وَفِي الرِّقَابِ}: جمع رقبة، وتعني فك رقبة: فك الأسير، أو العبد؛ لأنّ العبد يشبه من تملكه من رقبته عتق رقبة، أو فك رقبة: تحرير رقبة.

{وَأَقَامَ الصَّلَاةَ}: فعل فروض الصلاة ، {وَآتَى الزَّكَاةَ}: فعل فرض الزكاة الواجبة

{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}: العهد: وعد مقرون بشرط، والعهد يقتضي الوفاء، وقد يكون بين العبد وربه، أو يعاهده ربه على لسان رسوله، وأسند الله العهد إلى نفسه في القرآن كله، والعهد قد ينفرد به الفرد، والعهد يتمثل بقوله تعالى: وصينا، أمرنا، أوحينا، أو عهدنا.

{وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ}: ومن البر الصّبر، إظهار لفضل الصّبر في جميع الأحوال، والشّدائد، والطّاعات. {فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ}: البأساء: من البؤس، وهو الفقر، والشّدة، والبطالة. {وَالضَّرَّاءِ}: الضّر، والمرض، والألم، والعواصف، والبراكين، والأمراض، وسواء كانت المصيبة فردية، أو جماعية. {وَحِينَ الْبَأْسِ}: البأس هنا يعني: الحرب، أو الشّدة في الحرب «الشّجاعة». وحين: زمن سواء كان سنة، أو شهوراً، أو أياماً، أو ساعات، زمن غير محدد.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا}: يدل على بعد مكانتهم، وارتفاع درجاتهم. وهم آمنوا بالله، واليوم الآخر، وملائكته، والكتاب، والنبيين، وآتى المال على حبه، وأقام الصّلاة، وآتى الزّكاة، والمؤمنون والصّابرون بشرط أن يفعلوا ما يقولون، ولا يكونوا من الّذين يقولون ما لا يفعلون.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}: جمع متّقٍ، وهو من اتّقى غضب الله وسخطه، واتّقى النّار. جمع لهم صفتين من أعظم الصّفات: الصّدق، والتّقوى، أي: إذا وجد متقون فهم حقّاً المتقون للمبالغة،

والمتقون جملة اسمية تدل على الثّبوت؛ أي: أصبحت التّقوى صفة ثابتة لهم.

قال العلماء: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة ، وأما الوصف البارز الذي توجّه به الله تعالى لمن اتصف بصفات البر في الآية فهو: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، وأنهم كانوا جادّين في الدين، وهذا غاية الثناء.

آيات محكمات وآيات متشابهات

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)} [آل عمران]

الله سبحانه انزل القرآن على محمد ﷺ فيه آيات محكمة وآيات متشابهة .

{مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ}: آيات الفرائض، والحدود، وآيات الأحكام كلها، والأسرة، والطلاق، والزواج، والعبادات، وآيات الأمر، والنهي، والحلال، والحرام. واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، لا تحتمل التأويل والاشتباه، ولا يختلف فيها الناس، ولا تتغير ولا تتبدل، ولا تحتمل إلا معنى واحداً، وهي عماد الدِّين، أو أصول علم الفقه .

أمثلة على الآيات المحكمة: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}، {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ}، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، ومعنى هذه الآيات واضح وجلي

{هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}: أم الكتاب؛ أي: الأصل؛ لأن أم كل شيء أصله. ومما ذكر، أو كتب في أم الكتاب لا يتغير، ولا يتحول، ولا يقع فيه محو، أو تغير. وأما ما ذكر في اللوح المحفوظ يمكن أن يتغير، ويتبدل؛ لقوله تعالى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} .

{وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}: لها معانٍ كثيرة متشابهة، أو متعددة، خفية وظاهرة. مثل أمور الغيب، وفواتح السور: وهي آيات الاعتقاد، والقدر. وتتعلق بصفات الله تعالى. نسلم بها كما جاءت،

وغير مسؤولين عن تأويلها. ، وأفضل ما نقول فيها ما قاله الله تعالى ونسكت أمثلة: {يَدُ اللهِّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، {السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، {يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}.

والقرآن وصف كله بالتشابه، ووصف كله بالإحكام، فقال تعالى: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} ، {اللهُّ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ}

{ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}: الزيغ: هو الميل عن الحق، بسبب الأهواء، والشهوة، أو الشبهة، أو الفتنة، والزيغ: مشتقة من تزايغ الأسنان؛ أي: اختلاف منابتها، فتظهر خارجه، أو داخله. في قلوبهم مرض الزيغ. والزيغ: مرض يطرأ على القلوب التي تخلق لا زيغ فيها؛ لأنها تخلق على الفطرة السليمة، وما يجعلها تزيغ هي الأهواء، والشهوات.

{فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}: يتخذون الآيات المتشابهات وسيلة للطعن، أو يعطلون صفات الله، أو يحرفونها؛ ليخدموا شهواتهم، وأهواءهم. {ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}: أي: يتبعون الزيغ طلباً لفتنة المؤمنين في دينهم، ومعتقداتهم، وليضلوا عقول الذين يضلونهم، وإثارة للشبهة، والتناقض، وتشكيك المؤمنين بدينهم، والتلبيس عليهم.

والفتنة: هي أشد الابتلاء، والاختبار، وتكون في الخير والشر، ولها معانٍ كثيرة، ومختلفة؛ منها: الكفر، والشرك، والأذية (أذى الناس)، والقتل، والأسر، والضلالة، والزيغ، والعدول عن الحق والصراط، وتعني: الحجة، والمعذرة، والتعذيب في النار، أو غيره، والوقوع في المعاصي، والنفاق، والعذاب، والصد عن سبيل الله، وغيرها.

{وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}: طلباً للتأويل، وهو التحريف؛ ليوافق معتقداتهم الفاسدة، كما في تأويلهم خاتم النبيين: يقولون: إنه الخاتم الحقيقي الذي في الإصبع، وليس هو آخر النبيين، فهناك أنبياء سيأتون من بعده.

والتأويل: هو نقل ظاهر اللفظ إلى دلالة أخرى، أو معنى آخر، ولا يجوز التأول كيف نشاء وله شروطه. أما التفسير: فهو كشف المراد من اللفظ، أو المعنى، أو الآية.

{وما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُّ}: أداة حصر؛ أي: الله وحده سبحانه هو الذي يعلم تأويل المتشابه.

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}: جمع راسخ، ورسوخ الشيء في الشيء ثبوته؛ أي: أتقنوا علمهم بلا شك ولا لبس، والقادرون على تأويله يعلمون المحكم والمتشابه، ويعلمون الشيء بدلائل كثيرة، ويعرفون أصل الشيء، ومن المفسرين من يقف على قوله إلا الله: ويفسرون المتشابه لا يعلمه إلا الله وحده ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون، ومن المفسرين مَنْ عطف الراسخين في العلم على الله تعالى؛ أي: الله سبحانه، والراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه، ونتيجة علمهم يقولون: {آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا} (نؤمن به جميعاً).

وفي كلا الحالتين: إن علموا تأويله وحكمته، قالوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا (نؤمن بالمحكم والمتشابه جميعاً)، وإن لم يعلموا تأويله، وحكمته قالوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، النهاية نفسها.

وهناك من المفسرين من قال: إن من المتشابه في القرآن ما هو حقيقي، لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ كقوله: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، أو كيف ينزل إلى السماء الدنيا، ومن المتشابه ما هو نسبي، والراسخون في العلم قادرون على تأويله، وإرجاعه إلى ما جاء في المحكم.

وقيل: الراسخ: هو الثابت المتمكن في العلم.

{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}؛ (أي: المحكم والمتشابه)، {كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا}: المحكم من عنده، والمتشابه من عنده، لا يتناقض كلامه، ولا يختلف كتابه. {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}: أي: لا يغفل، ولا ينسى ذلك، أولو العقول النيرة الذين أسلموا وجوههم لله. أولو التفكير، والتدبير، والحكمة، أو الصفوة من المؤمنين.

واللب: منطقة التفكير، والتدبر في العقل (وسموها قديماً باطن العقل). وجاء تعريفهم في القرآن في سورة الزمر، آية (١٨): {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ} (القرآن والسنة) {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} (المحسنين) {الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ}.

دلت الآيات على أن آيات القرآن أكثرها محكم، وبعضها متشابه، وأن المتشابه لا يعلم المراد منه إلا الله والمتمكنون من العلم، لكن علمهم الله طريق العصمة من الزيغ في فهم المتشابه بدعاءين: {رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا..}. {رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النّاسِ..}. وأما الزائغون فيتبعون المتشابه

حب الشهوات

{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)} [آل عمران]

{زُيِّنَ}: المزين قد يكون هو الله سبحانه للابتلاء، والاختبار، والتزيين من الله هنا يقصد به الحض على الشهوات المنصوص عليها شرعاً؛ كالنكاح، والأبناء، فالله سبحانه زين لكل أمة عملها، وجعل على الأرض زينة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، وتزينه سبحانه لا يكون إلا لخير العبد أبداً. ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أو المزين هو الشيطان بوسوسته؛ ليقود الإنسان إلى المعاصي، والآثام فهو يزين الشهوات المحظورة، والله سبحانه يزين للشهوات المباحة، وتزيين الشيطان لا يكون إلا في الشر، وليس لمصلحة العبد . ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾

{حُبُّ الشَّهَوَاتِ}: حُبُّ: الحب هو قيل القلب الدائم، والإقبال على أمر أو شيء في الخير أو الشر؛ الشهوات: جمع شهوة، وهي توقان النفس والميل إلى المشتهى، وليست من قبيل الإرادة، والشهوة تتعلق بما يلذ من المدركات بالحواس، وقد عددها الله سبحانه في الآية منها: النساء والبنين والمال والذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث ، ابتدأ بالنساء؛ لأن الشهوة إلى النساء تفوق الشهوة إلى البنين والمال {وَالْبَنِينَ}: ولم يقل الأولاد؛ أي: الذكور والإناث ، أما البنين: الذكران، ولم يقل البنات؛ لأن حب الذكور مقدم على حب الإناث كما كان سائداً في الجاهلية {وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ}: القنطار هو (١٠٠ رطل)، وقيل: (١٠٠ ألف دينار). قناطير مقنطرة: قناطير جمع قنطار المال الكثير، والمنضدة بعضها فوق بعض كالقنطرة. والمقنطرة: صفة، أو نعت للقناطير. والذهب والفضة ليس خاصاً بالرجال؛ فالنساء: هي التي تشتري الذهب والفضة؛ كزينة، وتشتهي الزينة، ولو كان لها من الزينة أكثر وأكثر {وَالْخَيْلِ}: جمع مفردها فرس، وسميت خيلاً؛ لاختيالها في مشيتها، وطول أذنابها. والخيل يقابلها في زمننا الحاضر وسائل النقل السيارات الفاخرة، والقوارب، وغيرها من وسائل

النقل. {الْمُسَوَّمَةِ}: تسويمها؛ أي: حسنها، أو المعلمة، من السيماء، وهي العلامة، أو مروضة، أو فيها علامات كالغُرة، والتحجيل، وهذا حصان أغر، أو أدهم، أو أشقر، وكذلك المسومة ترعى حيث تشاء، وتأكل كما تشاء . {وَالْأَنْعَامِ}: ثمانية أزواج من الضأن اثنين، ومن الماعز اثنين، والإبل اثنين، ومن البقر اثنين، وتمثل في وقتنا الحاضر الأسهم التجارية، والعقارية، وغيرها. {وَالْحَرْثِ}: الزرع، أو المزروعات، والثمار، والفاكهة، والنخيل، والأعناب، وتمثل الأراضي، والبساتين، والعقارات.

{ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}: ذلك اسم إشارة للمذكور سابقاً، أو المتقدم ذكره من النساء والبنين والمال والخيل والحرث وغيره من متاع الحياة الدنيا: ما يتمتع به في الدنيا، ثم يفنى ومنه الطعام، وأثاث البيت، والسلعة، والأداة، والمال، والتمتع: هو كل ما ينتفع به، ويرغب في اقتنائه، والمتاع يطلق على القليل والكثير. {وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}: عنده: ظرف مكان، أو زمان، حسن المآب؛ أي: المرجع، وهو الجنة، فيه إشارة إلى التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة والجنة.

المآب: من آب؛ أي: رجع، حسن المآب؛ يعني: ما أعده الله تعالى لأوليائه من النعيم .

المناسبة: ذكر في الآيات السابقة عاقبة الغرور بالمال والولد، ثم ذكر هنا وجه الغرور وسببه، تحذيرا للناس من استعباد الشهوات لأنفسهم، والانشغال بها عن أعمال الآخرة ، ولقد عبر القرآن عن الأشياء المشتهاة بالشهوة ذاتها مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها، وإشارة إلى أن الشهوة مذمومة حتى يعتدل الإنسان في حبه لها، ويعدّل غريزته نحوها، ولا يحمله حبّه الدنيا حبا أعمى، وتعلقه بالزعامة الموقوتة، والمال الزائل على طمس معالم الحق وعدم الإيمان بدين الحق، الذي عرفوه كما عرفوا أبناءهم، مثل وفد نصارى نجران وغيرهم من زعماء الكفر

ودل قوله تعالى: {ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي ما يتمتع به فيها ثم يذهب ولا يبقى، على تزهيد الناس في الدنيا وتحقيرها، والترغيب في الآخرة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَلَيْسَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا شَيْءٌ أَفْضَلَ مِنَ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ» جه وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ – ﷺ – رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي

اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ -: "ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبّوكَ" جه أي ازهد في متاعها من الجاه والمال الزائد على الضروري، وأخرج الترمذي عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء».

وأما قوله تعالى: {وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} فيدل على تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة

المسارعة والمسابقة لفعل الخيرات

قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)} [آل عمران]

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}: بترك الربا حالاً، والسرعة هي الجري بسرعة إلى طلب المغفرة. والسرعة لا تعني العجلة؛ لأن العجلة مذمومة في معظم الأحوال؛ إلا في دفن الميت، والتوبة، والزواج للبكر، وأداء الأمانة مثلاً، والسرعة مطلوبة من كل إنسان في الإنابة، والتوبة، والاستغفار (طلب المغفرة).

وهناك فرق بين المسارعة والمسابقة (أو السباق). المسابقة تحتاج إلى أكثر من فاعل، فلا بد من اثنين، أو أكثر لتتم المسابقة، أما المسارعة فقد تتم بواحد.

وسارعوا إلى: إلى: حرف غاية، والغاية هي المغفرة. والمغفرة والغفران؛ أي: الستر ستر الذنوب، وبالتالي العفو عنها. أي: مغفرة صغيرة وكبيرة؛ أي: سارعوا إلى موجبات المغفرة وأولها هي الإسراع بالتوبة، والإنابة إلى الله، وترك الذنب، وكثرة الاستغفار، والإكثار من العمل الصالح، وفعل الخير. من ربكم: الرب المربي المتولي بتدبير أموركم الذي خلقكم، ورزقكم، ورباكم.

{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}: وسارعوا إلى جنة: نكرة؛ لأن هناك جنات كثيرة: جنات عدن، جنات الفردوس، جنات النعيم وغيرها. سارعوا إلى أي جنة من هذه الجنات، والإسراع

يعني إلى موجبات الدخول في الجنة؛ كالقيام بالعمل الصالح، والإيمان وطاعة الله ورسوله.

جنة عرضها السموات والأرض: عرضها السموات السبع والأرض، فما طولها؟ لا يعلمه إلا الله. {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}: أعدت: هيئت وأحضرت، فهي الآن موجودة ومخلوقة، وتنتظر أهلها.

المتقين: جمع متقٍ، والمتقي هو من أطاع أوامر الله، وتجنب ما نهى الله عنه.

مقارنة بين آية آل عمران وآية الحديد

ولا بد من مقارنة هذه الآية (١٣٣) من آل عمران مع الآية (٢١) من سورة الحديد؛ لنرى الكثير من الفروق : آل عمران (١٣٣): {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}. الحديد (٢١): {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}.

الاختلاف الأول: آية سورة آل عمران: تخاطب المتقين، وتحثهم بأن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة. بعد أن طلب منهم التقوى: {فَاتَّقُوا}، وطاعة الله ورسوله: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}. وبدأ بواو العاطفة.

آية سورة الحديد: تخاطب الذين آمنوا بالله ورسله، وهم أقل درجة من المتقين في الإيمان.

ولكن الذين آمنوا بالله ورسله أكثر عدداً من المتقين، وتحثهم على المسابقة إلى مغفرة من ربهم وجنة بعد أن بين لهم أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة.

الاختلاف الثاني: في آية سورة آل عمران: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}. في آية سورة الحديد: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}. الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض أوسع، أو أكبر من الجنة التي عرضها السموات والأرض؛ لأن السماء أوسع وأكبر من السموات، فالسماء تشمل السموات السبع وغيرها.

وبما أن عدد الذين آمنوا بالله ورسله أكثر من المتقين فهم يحتاجون إلى مكان أوسع، ولذلك ناسبهم قوله تعالى: كعرض السماء والأرض.

والمتقون أقل عدداً ناسبهم جنة عرضها السموات والأرض (أقل مساحة من السماء والأرض)

وفي المسند أحمد : فَلَمَّا أَتَى عَلَى قَوْلِهِ: دَعَوْتَنِي إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : " إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ فَأَيْنَ النَّهَارُ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُول اللهِّ ﷺ قَالَ: أَرَأَيْتَ قَوْلَهُ: {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ} [آل عمران: ١٣٣] ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا لَبِسَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قَالَ: حَيْثُ شَاءَ اللهُّ، قَالَ: «فَكَذَلِكَ النَّارُ حَيْثُ شَاءَ اللهُّ» البزار

ثم ذكر الله تعالى أوصاف أهل الجنة، وهي:

١ - الذين ينفقون في السّراء والضراء، أي في الشدة والرّخاء، والمنشط والمكره، والصّحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً} والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البرّ، وجاء في الحديث عند أحمد والشيخين عن عدي: " اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ "والأمر بالإنفاق له هدفان:

الأول–أنّ الصدقة عون المحتاج وأخذ بيده إلى طريق الكفاية، والرّبا استغلال الغني حاجة الفقير، لذا قال تعالى: {وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النّاسِ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ الله، وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ الله، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} وقوله: {يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ}

الثاني–أنّ الإنفاق في مختلف الأحوال يسرا وعسرا وغيرهما أدلّ على التّقوى، وأعون على سدّ الحاجات المتكررة، بنحو تدريجي بطيء، فلا يكون فيه إرهاق على المنفق، ولا إهمال للمحتاج حتى يصير في أدنى درجات الحاجة، وحبّ الخير وتذكّر الآخرة هو الذي يحرّك في الإنسان عاطفة الرّحمة، وداعية البذل لإنفاق القليل الدائم، فالقليل الدائم خير من الكثير المنقطع، والقليل إذا اجتمع من الأفراد والجماعات صار كثيرا محققا للمطلوب، لذا قال الله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللهُ، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاّ ما آتاها، سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً}

٢ - والكاظمين الغيظ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموا، فلم يعملوه مع القدرة على

إمضائه وإنفاذه، لا عن ضعف وعجز، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ " ق وفي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لَا تَغْضَبْ .»

علاج الغضب

ما رواه أحمد وأبو داود عن عطية بن سعد السعدي عَنْ عَطِيَّةَ - وَقَدْ كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ "

أسباب الغضب :

فمن أسبابه: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه الأخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس رضى الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر ﷺ فآذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر ﷺ ، حتى هم أن يوقع به . فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر ﷺ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله ﷻ .

الثاني: أن يخوف نفسه من عقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله على أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبى، لم آمن أن يمضى الله ﷻ غضبه عليّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أمحقك فيمن أمحق.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فان الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة وهذا هو تسليط شهوة على غضب ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الآخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري، والسبع العادي، وانه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عادتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصير حقيراً في أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى، هذا ما يتعلق بالقلب.

السابع : أن يستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم.

الثامن : أن يذكر ثواب العفو وحسن الصّفح فيقهر نفسه على الغضب.

التاسع : أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النّفوس إليه، فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير النّاس منه ويكفّ عن متابعة الغضب

وأما العمل، فينبغي له السكون، والتعوذ، وتغيير الحال، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاَ عند الغضب، فهذه الأمور وردت في الأحاديث. أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بينها في الحديث. وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل، ويمكن أن يكون

ليتواضع بذله، لأن الغضب ينشأ من الكبر، وقيل: غضب المهدى على رجل، فدعا بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه، وإطراق الناس، فلم يتكلموا بشيء، قال: يا أمير المؤمنين، لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه، فقال: خلوا سبيله.

عَنْ مُعَاذٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ غَضَبُهُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ " حم

عن سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: أَتُرَى بِي بَأْسٌ، أَمَجْنُونٌ أَنَا، اذْهَبْ.» خ

عن أَبُي وَائِلٍ صَنْعَانِيٌّ مُرَادِيٌّ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: إِذْ أُدْخِلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ أَغْضَبَهُ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ غَضِبَ قَامَ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْنَا وَقَدْ تَوَضَّأَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عَطِيَّةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ " حم

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَجْلِسْ، وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَضْطَجِعْ» حم

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ، عَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ يُوقِدُ فِي فُؤَادِ ابْنِ آدَمَ النَّارَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى أَحَدِكُمْ إِذَا غَضِبَ كَيْفَ تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ، وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ، فَإِذَا أَحَسَّ أَحَدُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَضْطَجِعْ، وَلْيَلْصَقْ بِالْأَرْضِ» حم

بين الحزن والغضب:

قال الماورديّ: سبب الغضب هجوم ما تكرهه النّفس ممّن دونها، وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النّفس ممّن فوقها، والغضب يتحرّك من داخل الجسد إلى خارجه والحزن يتحرّك من خارج الجسد إلى داخله، فلذلك قتل الحزن، ولم يقتل الغضب؛ لكمون الحزن وبروز الغضب، وصار

الحادث عن الغضب السّطوة والانتقام لبروزه، والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه، وكذلك أفضى الحزن إلى الموت، ولم يفض إليه الغضب .

فلإنسان مطبوع على سبعة أخلاق: على الغضب، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغفلة، والشك، والشرك

وَرَوَى أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ، ﷺ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمْضِيَهُ، فَلَمْ يُمْضِيَهُ، مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا» حم والمصنف

وهناك من الغضب ما هو محمود .

٣ - والعافين عن الناس أي الذين يتسامحون ويعفون عمن أساء إليهم مع القدرة على ردّ الاعتداء، وتلك منزلة ضبط النفس التي تدلّ على سعة العقل ورجاحة الفكر وقوة الإرادة ومتانة الشخصية، وهي أرقى من كظم الغيظ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة، وهذا مثل قوله تعالى: {وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}

روى الحاكم والطبراني مكارم الأخلاق): ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ الْبُنْيَانُ، وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَلْيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ، وَلْيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ» ض

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: أَيْنَ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ؟ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ خُذُوا أُجُورَكُمْ، وَحَقَّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِذَا عَفَا أَنْ يُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ " ابن شاهين ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى: ٤٠]

٤ - والله يحبّ المحسنين: الذين يقابلون الإساءة بالإحسان، إما بإيصال النّفع لمن أساء، وإما بدفع الضّر عنه في الدّنيا بألا يقابل الإساءة بمثلها، أو في الآخرة بالعفو عماله عند النّاس من الحقوق. وهذه مرتبة هي أعلى المراتب السابقة.

أخرج البيهقي أنّ جارية لعلي بن الحسين ﷺ جعلت تسكب عليه الماء، ليتهيأ للصّلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه، فقالت: إن الله يقول: {وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ} فقال لها: قد

كظمت غيظي، قالت: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} قال: قد عفا الله عنك، قالت: {وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} قال: اذهبي فأنت حرّة لوجه الله تعالى.

أصحاب الحقوق العشرة

قال تعالى{وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) } [النساء]

{وَاعْبُدُوا اللهَّ}: والعبادة تشمل العبادات: العبادات الحسية كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والعبادات القلبية: مثل الشكر، والذكر، والتفكر في خلق السموات والأرض وغيرها؛ التي هي أركان الإسلام من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج.

وتشمل العبادة كلَّ عمل يؤدِّي إلى الإصلاح، وكذلك التفكُّر في خلق السموات والأرض، والمعاملات، والتوحيد.

والعبادة: هي طاعة العابد للمعبود، والخضوع له، والاستسلام له، والإخلاص له في كل حال وزمان، وفيما شرع.

{وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْـئًا}: من ولد، أو شريك، أو ولي، أو صنم، أو ند، أو مثيل. والشرك الخفي: هو الرياء، ويشمل: توحيد الألوهية، والربوبية، والصفات، والأسماء. أيْ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولو كان مقدار ذرة من الشرك و (شيئاً) نكرة تشمل كل شرك مهما كان نوعه وشكله.

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}: أي: البر بهما من خدمة، والإنفاق عليهما، وطاعتهما، وتنفيذ أوامرهما بلين ورحمة، وخفض جناح، وأصل الجملة (وأحسنوا إحساناً بالوالدين)، والإحسان قد يتعدى بـ (إلى)؛ أي: أحسن إلى الوالدين أو بالباء وفي هذه الآية وغيرها من الآيات تعدى بالباء التي تفيد الإلصاق؛ أي: الدوام على الإحسان، والإحسان يجب أن يكون مباشراً لذاتهما خاصاً بهما وليس كالإحسان العام إلى الآخرين كما ورد في سورة القصص {وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُّ إِلَيْكَ}، ولكن كالإحسان الذي ورد على لسان يوسف –عليه السلام– حين قال: {قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى} ، وقرن الإحسان بالوالدين بعبادته سبحانه، وجعله كأنه ميثاقاً.

ويوسع الله سبحانه دائرة الإحسان؛ لتشمل ثمانية أصناف أخرى هي:

{وَبِذِى الْقُرْبَى}: أي: الإحسان إلى ذي القربى إضافة الباء: للتوكيد، والاهتمام بالقربى. تعني: الإحسان إلى أقرب الأقرباء؛ أيْ: ذريته؛ كالولد، والبنت، والأخ، والأخت، والعم، والعمة، والخال، والخالة...

{وَالْيَتَامَى}: أي: الإحسان إلى اليتامى جمع يتيم: وهو من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وذلك بالكفالة، والملاطفة، والتواضع معهم.

{وَالْمَسَاكِينِ}: والإحسان إلى المساكين جمع مسكين: وهو المحتاج الذي له مال لا يكفيه؛ بالعطاء، والقول المعروف، والإحسان إليه، والمسكين أحسن حالاً من الفقير.

{وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى}: وكذلك الإحسان للجار القريب، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

{وَالْجَارِ الْجُنُبِ}: الجار البعيد؛ فإذا كان مشركاً؛ فله حق الجوار، وإن كان مسلماً فله حق الجوار، وحق الإسلام. {الْجُنُبِ}: البعيد في النسب؛ أي: الذي لا قرابة بينه وبين جاره.

{وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ}: أي: المرافق، أو المرافقة، قالوا: هي الزوجة، أو رفيق السفر، أو التجارة، ويدخل في ذلك الخادم، وقد تعني: الصديق، أو كل أولئك.

{وَابْنِ السَّبِيلِ}: أيْ: ابن الطريق؛ أي: الغريب الذي انقطعت به الأسباب، ونسب إلى كونه ابن الطريق؛ لأنه ليس له أب، ولا أم، ولا قبيلة حين تنقطع به السبل في بلاد غريبة، وقيل: هو الضيف. وقيل: من لا مأوى له ويفترش الطرقات.

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}: مثل: الأسرى، والعبيد، والإماء، أو العمال، وفك أسرهم، أو السجناء المظلومين.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}: {مُخْتَالًا}: الخال: هو الكبر، مختال: متكبر. {فَخُورًا}: هو الذي يتفاخر على الناس، ويعدد محاسنه ومناقبه تعالياً، وسمعة على الناس؛ أي: المعجب

بنفسه، أو ينكر ما كان عليه حاله قبل غناه مختال على أهله، وقومه، وعشيرته، وأهله.

{مَنْ كَانَ}: تعني: قليلون من يتصفون بذلك ، وقد نهى الله تعالى عن الكبر والخيلاء في آية أخرى هي: {وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً}

ما روى أبو داود والترمذي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ »

طاعة الله والرسول وأولي الأمر

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) } [النساء]

بعد أن أمر الله بأداء الأمانات إلى أهلها وبالحكم بين الناس بالعدل يأمر الله سبحانه بطاعة الله سبحانه وطاعة رسوله -ﷺ -، فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: نداء إلى الذين هم على درب الإيمان بأمر، أو حكم جديد، وهو: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، والهاء: للتنبيه.

{أَطِيعُوا اللَّهَ}: فيما أمر به، ونهى عنه، وفيما شرع لكم.

{وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}: فيما أمر به ونهى عنه، وما فصل لكم من الأحكام والشرائع؛ فقد قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧].

{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ}: انتبه إلى قوله سبحانه: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم، وإنما حذف كلمة وأطيعوا، وعطف طاعة أولي الأمر على طاعة الله وطاعة الرسول، فطاعة أولي الأمر ليست مستقلة، أو منفصلة عن طاعة الله، وطاعة الرسول، وما يأمركم به أولي الأمر منكم يجب أن لا يخالف ما أمركم الله ورسوله، أو نهاكم الله ورسوله؛ فإذا كان الأمر كذلك أطيعوا أولي الأمر منكم؛ مثل: القادة، والحكام، والمتولِّين أموركم، وإذا أمروكم بشيء مخالف لله ، وللرسول فلا طاعة لهم أبداً؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، [إنما الطاعة في المعروف] حديث صحيح رواه البخاري

{تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ}: أيْ: حدث خلاف بينكم في أمر من أمور الدِّين، أو الدنيا؛ فإن تنازعتم بعضكم مع بعض، أو مع ولاة الأمور، والتنازع يكون بين طرفين. {فِى شَىْءٍ}: أيِّ شيءٍ سواء أكان حكماً، أم فتوى، أم سؤالاً. {فَرُدُّوهُ}: أرجعوه إلى الله تعالى ورسوله، وانظروا إلى ما جاء في الكتاب والسنة، وما قاله أولو العلم، والفقهاء، والصحابة، ومصادر التشريع، والفقه، والقياس، وغيرها.

{كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}: أيْ: إن كنتم تصدقون بالله، وبيوم القيامة، ومن يؤمن بالله واليوم الآخر يؤمن كذلك بالملائكة، والنبيين، والكتاب، وهذا وعيد لمن حاد عن طاعة الله ورسوله. {ذَلِكَ}: وتشير إلى طاعة الله ورسوله، والرد إليهما عند التنازع.

{خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}: مآلاً وعاقبة، أيْ: أفضل، والتأويل: ما يؤول إليه الشيء في آخر الأمر، ويقال: آل الأمر إلى كذا؛ أيْ: صار إليه، والتأويل: قد يعني التفسير والبيان.

ولما أمر الله الولاة والحكام بأداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، أمر الرعية بطاعته ﷻ أولا : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيا : فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثا: لكن تجب طاعة الأمراء أو السلطان فيما فيه طاعة، ولا تجب فيما كان لله فيه معصية روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك، وجب على المسلمين أن يطيعوه؛ لأن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة والعدل، ثم أمر بطاعته . وكذلك تجب طاعة أهل القرآن والعلم أي الفقهاء والعلماء في الدين.

فإن حدث التنازع بين الأمة وبين الأمراء، رد الحكم إلى كتاب الله، أو إلى رسوله بالسؤال في حياته، أو بالنظر في سنته بعد وفاته ﷺ ، وذلك نظير قوله تعالى: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} وقوله: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ومدعاة ذلك: الإيمان بالله وباليوم الآخر، وعاقبة الرجوع إلى القرآن والسنة ومآله أو مرجعه هو خير من التنازع .

واستنبط العلماء من هذه الآية أن مصادر التشريع الأصلية أربعة وهي:

الكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ لأن الأحكام إما منصوصة في كتاب أو سنة، وذلك قوله تعالى: {أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} والسنة: هي ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وإما مجمع عليها من أهل الحل والعقد من الأمة بعد استنادهم إلى دليل شرعي اعتمدوا عليه، وذلك قوله: {وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} وإما غير منصوصة ولا مجمع عليها، وهذه سبيلها الاجتهاد والقياس: وهو عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد العامة في الكتاب والسنة، وذلك قوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ}

الشفاعة والتحية بين الناس

قال تعالى {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) } [النساء]

{مَنْ}: شرطية للعاقل: {يَشْفَعْ شَفَاعَةً}: الشفاعة: هي التوسط بالقول، أو الفعل (شفاعة إنسان لإنسان) في الوصول إلى منفعة دنيوية، أو أُخروية، أو إلى الخلاص من مضرة ومن دون أجر، أو عوض على القيام بالشفاعة، وسُمِّيَت شفاعة؛ لأن الشفيع يصير مع المشفوع له شفعاً؛ أيْ: زوجاً.

{شَفَاعَةً حَسَنَةً}: الوساطة في الخير، والإصلاح، والدعاء له، والحسنة: كل ما يسرُّ النفس، أو تستحسنه النفس. {يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا}: يكون للشافع نصيبٌ (قسطٌ)، أو حظٌّ جيدٌ من الأجر والثواب.

{وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}: شفاعة سيئة وساطة في فعل الشر أو بأن يؤيد باطلاً، أو يترك معروفاً، أو تكن في معصية الله، أو ظلم وجور، أو الوقوع في حدٍّ من حدود الله.

{يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا}: أيْ: أن يكون للشافع شفاعة سيئة كفلاً منها؛ أيْ: يكن له جزءٌ من جزء المشفع له على شفاعته السيئة.

ما هو الفرق بين النصيب والكفل؟

النصيب: هو الحظ الجيد من الأجر، ويستعمل النصيب مع الشفاعة الحسنة للترغيب، وهو يضاعف، بينما الكفل: لا يزيد، ولا ينقص، وإنما هو مساوٍ لها، والشفاعة الحسنة لا تكفيك للوصول إلى الغاية، فلا بُدَّ من القيام بنفسك بالأعمال الصالحة الأخرى بالإضافة إلى تلك الشفاعة الحسنة. وهناك أنصبة (جمع نصيب) في العبادات القلبية، واللسانية، والبدنية، فكل عبادة تعطيك نصيب من الأجر.

الكفل: أكثر ما يستعمل في الشر، وقد يستعمل في الخير؛ كقوله: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ} فإذا استعمل في الشر: كفل الشيء؛ أيْ: مثله تماماً، لا يزيد ولا ينقص، وجزاء السيئة سيئة مثلها، ولا نقول بعشر أمثالها مثلاً. وهذه الشفاعة السيئة وحدها تكفي، وتكفل للشافع دخول جهنم، ولا يحتاج إلى شيء آخر، وهذا هو الفرق. {وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا}: كان تشمل كل الأزمنة، مقيتاً: مشتقة من قاته؛ أعطاه القوت، وهو الطعام، ولماذا أعطاه القوت؟ لكي يحافظ على حياته، إذن الله سبحانه يعطيهم ما يحفظ لهم حياتهم (فهو الحفيظ). وإذا كان يعطي القوت؛ فهو (الرزاق)، والمطعم لمخلوقاته جميعاً. إذن: مقيتاً قد تعني: الرزاق، والحفيظ .

عن أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ.» خ

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْأَلُنِي الشَّيْءَ فَأَمْنَعُهُ حَتَّى تَشْفَعُوا فِيهِ فَتُؤْجَرُوا»، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا . ن

فالشفاعة نوعان: حسنة وسيئة، أما الشفاعة الحسنة: فهي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز، لا في حدّ من حدود الله، ولا في حق من الحقوق.

والشائع الآن الوساطات والشفاعات السيئة المصحوبة بالمادة والرشاوى، لتضييع الحقوق، والاستيلاء على مال الغير.

قال الله : {وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا }

{حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ}: التحية: السلام؛ كأن يقول أحد لكم: السلام عليكم. {فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا}: بأن تقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. {أَوْ رُدُّوهَا}: نفسها؛ كأن تقولوا مثل الذي قال لكم: السلام عليكم، وعليكم السلام. {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}: {كُلِّ}: تشمل كل الأزمنة: الماضي، والحاضر، والمستقبل. الحسيب: الكافي للعباد، كان، ولا يزال، وسيظل من الأزل إلى أبد الأبد حسيباً، الذي يحاسب عباده على أعمالهم؛ أيْ: يجازيهم عليها، وهو سريع الحساب. ولنعلم: أن ابتداء السلام (التحية) سنة؛ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ: الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ " حم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ .» رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

وردُّ السلام فرض عين، ومنهم من قال: فرض كفاية بناءً على هذه الآية: وإذا حييتم بتحية...

أركان الإيمان

قال تعالى في النساء { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: نداء للذين هم على درب الإيمان بأمر جديد، أو تكليف، أو حكم.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}: انتبه هنا! ناداهم بـ {الَّذِينَ آمَنُوا}، ثم يقول لهم: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}: لا تعني هنا: الإيمان الأول، وإنما تعني: استقيموا على إيمانكم، وارتقوا في درجاته، والثبات عليه. {بِاللَّهِ}: آمنوا بوحدانيته، وألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته.

{وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ}: أي: القرآن الكريم نزل على رسوله -ﷺ-؛ أيْ: منجَّماً على

دفعات استمرت ٢٣ عاماً. {وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}: الكتاب: اسم جنس، يشمل كل الكتب السماوية الأخرى التي نزلت قبل القرآن، مثل: التوراة، والإنجيل، والزبور، والصحف.

وقوله سبحانه: {وَالْكِتَابِ}: بدلاً من الكتب؛ إشارة إلى أن الكتب كلها تعتبر واحدة، وتمثل كتاباً واحداً، ورسالة واحدة. {أَنْزَلَ}: تعني: جملة واحدة، دفعة واحدة، وفي هذه الآية كذلك دعوة لأهل الكتاب بالإيمان الصحيح؛ أيْ: آمنوا بالله ورسوله محمد -ﷺ-، والقرآن.

{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِّ وَمَلَائِكَتِهِ}: جاء بالفعل المضارع، ولم يقل: ومن كفر بالماضي؛ لأن الذي كفر ربما تاب من كفره وانتهى، وأما من يكفر؛ فإنه يستمر في كفره، أو يكفر من جديد، أو يعود إلى الكفر.

{بِاللهِّ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}: أركان الإيمان الخمسة. من حديث عمر ﷺ قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: " الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ " قَالَ: صَدَقْتَ. م حم

الجهر بالسوء

{لَا يُحِبُّ اللهُّ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُّ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)} [النساء]

{لَا}: الناهية. {يُحِبُّ اللهُّ الْجَهْرَ}: هو رفع الصوت، والجهر هو عموم الإظهار والإشاعة.

{بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ}: أيْ: إشاعة عيوب الناس، مثلاً: فلان يشرب الخمر، فلان يزني، فلان منافق، أو كافر، واللعن، والطعن، والسب، والشتم، والغيبة، والنميمة.

والسوء: هو كل ما يسيء إلى صاحبه، أو إلى الناس، وهو القبيح من القول الذي يؤدِّي إلى إثارة البغضاء، والعداوة، والكراهية، وانتشار الفساد، والحقد، والحسد، وعدم الجهر، والصبر، والتريث، والكتمان أفضل عند الله تعالى.

{إِلَّا مَنْ ظُلِمَ}: إلا: أداة حصر. أيْ: يباح للمظلوم أن يجهر بما في ظالمه من السوء؛ ليدفع عن نفسه الشر، أو أن يجهر لظالمه بالسوء؛ أيْ: يدعو عليه، أو أن يخبر الآخرين بما يفعله الظالم، أو بما يحدث له من شر، ويجوز أن يشتكي على الظالم، إذا ضاقت به السبل.

{وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا}: {سَمِيعًا}: ما يقال من الجهر من القول، وكل ما يقال خيراً، أو شراً، وفي السر والعلن، عليماً بظواهر الأمور وبواطنها، بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وعليماً صيغة مبالغة؛ تعني: كثير العلم، أحاط علمه بجميع خلقه، وبكل شيء.

يعاقب الله تعالى المجاهر بسوء القول، أي بذكر عيوب الناس وتعداد سيئاتهم، لأنه يؤدي إلى إثارة العداوة، والكراهة والبغضاء، ويزرع الأحقاد في النفوس، ويسيء أيضا إلى السامعين، فيجرئهم على اقتراف المنكر، وتقليد المسيء، ويوقعهم في الإثم، لأن سماع السوء كعمل السوء. وكذلك الإسرار بسوء القول محرّم ومعاقب عليه، إلا أن الآية نصت على حالة الجهر، لأن ضرره أشد، وفساده أعم وأخطر، لذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} ، ثم استثنى الله تعالى حالة يجوز فيها إعلان السوء من القول: وهي حالة الشكوى من ظلم الظالم لحاكم أو قاض أو غيره ممن يرجى منه رفع ظلامته وإغاثته ومساعدته في إزالة الظلم. والشكوى على الظالم أمر مطلوب شرعا، إذ لا يحب الله لعباده أن يسكتوا على الظلم، أو أن يخضعوا للضيم أو أن يقبلوا المهانة ويسكتوا على الذلة.

١ - الجهر بالسوء من القول بإشاعة عيوب الناس أمر منكر يعاقب الله تعالى عليه.

٢ - يباح للمظلوم اللجوء إلى القضاء والشكوى لرفع الظلم ووصف فعل الظالم، كما أنه يجوز الدّعاء على الظالم، ودعوة المظلوم مستجابة.

٣ - الاعتدال في طلب الحقّ أمر مطلوب شرعا، لأن قوله تعالى: {وَكانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً} تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدى الحدّ في الانتصار

٤ - العفو عن المسيء مندوب إليه ومرغّب فيه، لأن العفو من صفة الله تعالى، مع القدرة على الانتقام.

ما يُبَاحُ مِن الغِيبَة

اعلم أنَّ الغيبةَ وإن كانت محرّمة فإنها تُباح في أحوال للمصلحة.

والمُجوِّزُ لَهَا غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصولُ إليه إلا بها، وهو أحد ستة أسباب.

الأوّل: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلَّم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممّن له ولاية أو له قدرة على إنصافه من ظالمه، فيذكرُ أن فلاناً ظلمني، وفعل بي كذا، وأخذ لي كذا، ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر وردّ العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعملُ كذا فازجرْه عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراما .

الثالث: الاستفتاء، بأن يقولَ للمفتي: ظلمني، أبي أو أخي، أو فلان بكذا .

الرابع: تحذير المسلمين من الشرّ ونصيحتهم . ومنها ما استشارك إنسان في مصاهرته، أو مشاركته، أو إيداعه، أو الإيداع عنده، أو معاملته بغير ذلك، وجب عليك أن تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة، فإن حصل الغرض بمجرّد قولك لا تصلحُ لك معاملتُه، أو مصاهرُته، أو لا تفعلْ هذا، أو نحو ذلك، لم تجز الزيادةُ بذكر المساوئ وإن لم يحصل الغرض إلا بالتصريح بعينه فاذكره بصريحه .

الخامس: أن يكون مُجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، أو مصادرة الناس، وأخذ المُكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولّي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يُجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب: كالأعمش، والأعرج، والأصمّ، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنيّة التعريف، ويحرمُ إطلاقُه على جهة التنقص ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

محرمات من الطعام وكمال الدين

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهَّ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) } [المائدة]

{حُرِّمَتْ}: مبني للمجهول، مع العلم أن الله هو الذي حرمها؛ لأن الله -جل وعلا- هو المحلل، والمحرم وحده، وما حلل وحرم رسول الله -ﷺ-، يدخل فيها حلل وحرم الله -جل وعلا- .

الميتة: التي ذهبت منها الحياة؛ أيْ: خرجت روحها منها وماتت، وانتهت، يستثنى من ذلك السمك والجراد، والميِّتة بتشديد الياء التي لم تخرج منها الروح؛ أي: لا زالت حية وعلى وشك الموت بعد فترة من الزمن.

{وَالدَّمُ}: أي: الدم المسفوح، الجاري من الأوردة والشرايين، عند الذبح، أو غير الذبح؛ أيْ: شربه، وغليه، واستعماله في الأكل، ويستثنى من ذلك الكبد والطحال.

{وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ}معروف {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ}: أي: الذي لم يذكر اسم الله عليه، أو ذكر اسم غير الله عليه؛ مثل: الصنم، أو الولي، أو الوثن؛ ففي هذه الآية قدم اسم الله؛ لأن الآيات في سياق تعظيم شعائر الله، وفي آية البقرة (١٧٣) قدم به؛ لأنها في سياق الذبائح المحرمة؛ أي: الطعام.. وحرمت عليكم: {وَالْمُنْخَنِقَةُ}: أي: التي ماتت خنقاً. {وَالْمَوْقُوذَةُ}: التي ماتت ضرباً. {وَالْمُتَرَدِّيَةُ}: التي وقعت من ارتفاع، ثم ماتت. {وَالنَّطِيحَةُ}: التي نطحها حيوان، ثم ماتت. {وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}: وما بقي من الحيوان بعد أكل السبع منه؛ أيْ: ما افترسه ذو ناب؛ كالأسد، والذئب، والضبع، والكلب. {إِلَّا}: أداة استثناء، تعود على المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع، ولا يشمل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهلَّ به لغير الله؛ لأن ذلك محرم تحريماً عُقدياً (بالعقيدة).

{مَا ذَكَّيْتُمْ}: أي: الذي ذكّيتم. التذكية: هي الإتمام، يقال: ذكَّيت النار إذا أتممت إشعالها، فهذه الحيوانات إذا ذكّيتموها، ولا زال فيها حياة، ثم أتممتم ذبحها وسال منها دم، وصدر عنها حركة، أو صوت، تدلّ على حياة، فيجوز أكلها.

{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}: النُّصب: هي حجارة، كانت منصوبة حول الكعبة، يذبح عليها

المشركون الذبائح تقرُّباً للآلهة، والأصنام.

{وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ}: الاستقسام: طلب القسم، والنصب: طلب معرفة ما قسم له؛ أيْ: نصيبه مما يقسم له بالأزلام.

والأزلام: أقداح مكتوب عليها: افعل، أو لا تفعل، أو أمرني ربي، أو نهاني ربي، يحرك هذه الأقداح، ويختار قدحاً، فيقرأ ما فيه، وهي عشرة أقداح، أو أقل، قدح يقول: خذ نصيباً، وآخر يقول: خذ نصيبين، وهكذا ثلاثة، أربعة... {ذَلِكُمْ}: تشير إلى جميع ما حرَّم الله سبحانه.

واستعمل {ذَلِكُمْ}، ولم يستعمل ذلك؛ لأن {ذَلِكُمْ}: تستعمل لكثرة الأمور المذكورة، وتستعمل في التوكيد، أو الحكم العام المستمر، وذلك تستعمل للقلة، أو الأمر الواحد، والأقل توكيداً.

{فِسْقٌ}: خروج عن طاعة الله إلى معصية، أو خروج عن شرع الله، ومن يفعل ذلك؛ يسمَّى فاسقاً، واشتُقت الكلمة من فسقت الرطبة عن قشرتها؛ أيْ: خرجت عن قشرتها، وللفسوق درجات قد تصل إلى الكفر، والفسق شيء عام، أعمُّ من الظلم، وكل ظالم، أو كافر هو فاسق، وليس كل فاسق ظالماً، أو كافراً، وفي سورة الحجرات آية (٧) يقول تعالى: {وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ}، فما هو الفرق بين الفسق والفسوق؟ الفسوق: عام وهو الخروج عن طاعة الله أو الدين. أما الفسق: أمر خاص بالأطعمة والذبائح.

{الْيَوْمَ}: ظرف زمني في علم الفلك، يقدر (٢٤ ساعة). وفي القرآن يقدر بـ: (١٢ ساعة) من شروق الشمس إلى غروبها. ويُراد به اليوم الذي نزلت به تلك الآية، وكان يوم عرفة، يوم الجمعة، وحج الوداع، حيث نزلت اليوم: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، وله معانٍ أخرى.

{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ}: اليأس: هو انقطاع الرجاء في شيء. أيْ: يئس الذين كفروا أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام؛ أيْ: ترتدوا؛ أيْ: ترجعوا عن دِينكم الإسلام إلى الكفر؛ لما رأوه من قوته، ودخول الناس فيه أفواجاً.

{فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ}: الخشية: هي الخوف؛ المقرون بالعلم، والمهابة، والتعظيم،

ولا: الناهية. {فَلَا تَخْشَوْهُمْ}: أيْ: لا تخشوا الكفار، أو المشركين؛ أيْ: تخافونهم وتهابونهم.

{وَاخْشَوْنِ}: ولم يقل: (واخشوني) بزيادة الياء، زيادة الياء (زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى)، فزيادة الياء؛ تدل على زيادة التوكيد، فجاءت من دون زيادة في هذه الآية؛ لأنها جاءت في سياق الأطعمة المحرمة، بينما جاءت (واخشوني) بزيادة الياء في سياق تحويل القبلة: {فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [البقرة: ١٥٠]؛ الذي أثار عقول المشركين واليهود، وضعاف الإيمان، وأدَّى إلى فتنة وإرجاف في المدينة، وارتداد بعض ضعاف الإيمان، فهذا الحدث لا يقارن بالحديث عن الأطعمة المحرمة؛ لذلك زاد الياء؛ للدلالة على عظم الحدث.

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}:

{الْيَوْمَ}: ظرف زمان، يعني: اليوم، يوم الجمعة، يوم عرفة من حَجَّة الوداع، معرف بأل تعريف؛ لتدل على عظمته، وكان -ﷺ- قد صلَّى راكباً على ناقته؛ حين نزول هذه الآية.

والسؤال هنا: ما مناسبة ذكر هذا اليوم في سياق آيات تحريم الأطعمة، وذكر الأطعمة المحرمة في سياق هذا اليوم؟ وما هو الفرق بين {أَكْمَلْتُ} {وَأَتْمَمْتُ}؟

قيل في الرد على هذا السؤال: إن تحريم هذه الأطعمة والخبائث من خصائص هذا الدِّين الكامل، ومن النِّعم التامة، ومما ارتضاه الله سبحانه للمؤمنين، فجاء ذكرها مع ذكر اليوم العظيم.

والفرق بين: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}: أكملت: والكمال لا يزاد عليه؛ لأنه الحالة المثلى، وأكملت جاءت في سياق الدِّين قد اكتمل، والكمال يتجلى في أن أحكامه صالحة لكل زمان ومكان، وفيه كل ما تحتاجون من الأحكام، والشرائع، والحلال والحرام، والحق والباطل، إلى يوم القيامة؛ فهو الدين الخالد ختم الله به الشرع ونسخ ما قبله.

بينما: {وَأَتْمَمْتُ}: من التمام، وجاءت في سياق النِّعم، والنِّعم يمكن أن يزاد عليها، ومن النِّعم: نصر الله تعالى عباده المؤمنين على الكفار، وفتح لهم البلاد، وأيَّدهم، ومكَّن لهم الدِّين.

{وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}: أي: اخترته لكم، كدين خاص بكم إلى يوم القيامة، وليس هناك

غير الإسلام دِيناً أصلاً. أما بقية الشرائع (اليهودية، والنصرانية): فهي ديانات، وليست دِيناً؛ أيْ: شرائع مختلفة تناسب كل أمة.

{فَمَنِ}: الفاء: استئنافية. من: شرطية. {اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ}: المخمصة: هي خلاء البطن من الطعام، وأصله ضمور البطن من الجوع، يقال: رجل خامص؛ أيْ: ضامر، والمخمصة: جوع فردي، بينما المسغبة: مجاعة عامة، والسغب: هو الجوع.

ومراتب الجوع: السغب، ثم الفرث، ثم الطوى، ثم المخمصة، ثم الضرم، ثم السعار.

ومراتب العطش: العطش، ثم الظمأ، ثم الصدى.

أيْ: من أُلجئ وأُكره ـ بحكم الضرر ـ على أكل الميتة، أو الدم المسفوح، أو لحم الخنزير، واستنفذ الأسباب كلها، وأخذ بها، وخاف على نفسه الهلاك، فلا مانع أن يأكل فقط ليسد جوعه.

{غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ}: أيْ: غير مائل بأن يكون باغياً، ولا عادياً، غير مائل عن الحق، والجنف: هو الميل عن الحق، والباغي: هو الذي يأكل فوق حاجته، والعاد: هو الذي يأكل من المحرمات، وعنده أطعمة أخرى، تسدُّ رمقه.

{فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}: أيْ: كثير الغفران، لا يعاقب على الأكل إذا كان الإنسان مضطراً، يغفر الذنوب جميعاً إلّا الشرك، والكفر. {رَحِيمٌ}: حيث أباح له أكل المحرمات، وإلّا هلك العبد. رحيم: صفة ثابتة لذاته العليا، رحيم بالمؤمنين في الدنيا والآخرة.

الطهارة والوضوء والغسل

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)} [المائدة]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}: نداء إلى {الَّذِينَ آمَنُوا} بتكليف جديد{إِذَا}تعني: حين القيام إلى الصلاة

والوضوء. {قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ}: أردتم ونويتم القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير وضوء.

{فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ}: غسل الوجه يشمل: غسل الجبهة، والذقن، وما بين الأذنين، والفاء: للترتيب، والتعقيب، والمباشرة. {وُجُوهَكُمْ} جمع وجه: وهو ما تقع به المواجهة، وحده طولا: ما بين أعلى منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحيين أو أسفل الذقن، وعرضا: ما بين الأذنين {وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}: يشمل غسل الكفين، والذراعين، والمرفقين. {الْمَرافِقِ} جمع مرفق وهو مفصل الساعد أو الذراع من الأعلى والعضد من الأسفل. {وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ}: الباء: باء الإلصاق، وتعني: اللصق، والمسح برؤوسكم، أو قيل: الباء تعني: امسحوا جميع الرأس، من مقدم الرأس إلى الخلف، ومن الخلف إلى الإمام. ومنهم من قال: الباء تعني: التبعيض؛ أي: امسحوا بعض الرأس. ومنهم من قال: الباء: للتوكيد، وغيرها من التفسيرات. {وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ} الباء للإلصاق، أي ألصقوا المسح بها من غير إسالة ماء، وهو اسم جنس فيكفي فيه عند الشافعي: أقل ما يصدق عليه وهو مسح بعض الشعر.

{وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ}: {وَأَرْجُلَكُمْ}: قيل: معطوفة على أيديكم واللغة تسمح العطف على الأبعد أي: أيديكم؛ أي: اغسلوا أيديكم إلى المرافق، واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين. {الْكَعْبَيْنِ} هما العظمان الناتئان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ.» خ

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، قُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: يُجْزِئُ أَحَدَنَا الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُحْدِثْ» خ

عَنْ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ: «أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِوَضُوءٍ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ إِنَائِهِ، فَغَسَلَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْوَضُوءِ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا، وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، وَقَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.» ق حم

جاء في جامع تراث العلامة الألباني في الفقه :

صفة الوضوء

صفته:

- السواك.

- التسمية: «توضؤا باسم الله».

- غسل الكفين ثلاثا، وهما سنة.

- المضمضة، والاستنشاق والاستنثار، وهي واجبة، وكان يصل بين المضمضة والاستنشاق فيأخذ نصف الغرفة لفمه ونصفها لأنفه، وكان يستنشق بيده اليمنى ويستنثر باليسرى، وأمر بالمبالغة في الاستنشاق «إلا أن تكون صائما».

- غسل الوجه فرض ويستحب تخليل اللحية.

- غسل اليدين مع المرفقين. وأمر بالتخليل.

- مسح الرأس كله فرض وصورته أن يمسح بيديه مقدم رأسه ثم يذهب بهما إلى قفاه ثم يردهما إلى المكان الذي بدأ منه. ويستحب المسح ثلاثا. ويكفي مسح بعضه إذا اتجه على العمامة. ويكفي المسح عليهما.

- مسح الأذنين يستحب بماء الرأس.

- غسل الرجلين فرض حتى يشرع في الساقين، وويل للأعقاب من النار، ويخلل بخنصر اليمين في الوضوء وفي كل شيء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِذَا لَبِسْتُمْ، وَإِذَا تَوَضَّأْتُمْ، فَابْدَءُوا بِأَيَامِنِكُمْ "، وَقَالَ أَحْمَدُ: " بِمَيَامِنِكُمْ " حم د

- وكان يتوضأ مرة مرة ومرتين ومرتين وثلاثا ثلاثا. وقال: «فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم».

- يستحب أن يقول بعد الفراغ: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا

عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» أو «سبحانك اللهم وبحمدك أشهدك أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

وجوب التسمية للوضوء

ومن سنن الوضوء قوله: « التسمية في أوله ، ورد في التسمية للوضوء أحاديث ضعيفة لكن مجموعها يزيدها قوة تدل على أن لها أصلا». أقوى ما ورد فيها حديث أبي هريرة مرفوعا بلفظ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ، وَلَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ " حم د روي عن النبي – ﷺ – أنه قال: «مَنْ تَوَضَّأَ فَذَكَرَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى وُضُوئِهِ، كَانَ طُهُوراً لِسائر جَسَدِهِ، وَمَنْ تَوَضَّأَ وَلَمْ يَذْكُرِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَطْهُرْ منه إِلَاّ مَا أصابه». ضعيف

الغسل وأسبابه

{وَإِنْ كُنتُم جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً}:

{كُنتُمْ جُنُبًا}: بجماع، أو احتلام إنزال المني، في نوم، أو يقظة. {فَاطَّهَّرُوا}: أيْ: فاغتسلوا بالماء، ويسمَّى غسلَ الجنابة (التطهر يكون بالوضوء، وغسل الجنابة). {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى}: ويخاف الضرر، أو الأذى باستعمال الماء. {أَوْ عَلَى سَفَرٍ}: مسافرين. {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}. والغائط في الأصل: المكان المنخفض من الأرض، وهو كناية عن قضاء الحاجة من بول وغائط. وكل ما يخرج من السبيلين ملحق بقضاء الحاجة. وأو هذه بمعنى الواو{أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ}: كناية عن الجماع. {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً}: للوضوء، أو الغسل؛ فتيمموا.

الجنابة والغسل

فرضية الغسل: {وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا}: أي فاغسلوا بالماء أبدانكم جميعا؛ لأن الأمر بالتطهير لما لم يتعلق بعضو مخصوص، كان أمرا بتحصيل الطهارة في كل البدن. وإنما حملت الطهارة على التطهر بالماء؛ لأن الماء هو الأصل فيها، كما يدل قوله تعالى: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ}

والجنابة: معنى شرعي يستلزم اجتناب الصلاة ودخول المسجد إلى أن يغتسل الجنب. وسبب الجنابة اثنان:

الأول–نزول المني: لقوله ﷺ فيما رواه مسلم: «إنما الماء من الماء» أي إنما يجب استعمال الماء للغسل من أجل الماء الحادث باحتلام أو جماع أي المني.

الثاني–التقاء الختانين: لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه احمد ابن ماجه عن عائشة وابن عمرو: « " إِذَا الْتَقَى الْخِتَانَانِ وَجَبَ الْغُسْلُ ».

ويجب الاغتسال أيضا بعد انقطاع دم الحيض والنفاس؛ لقوله تعالى في الحيض: {وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّى يَطْهُرْنَ، فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ} وللإجماع على أن النفاس كالحيض.

وحكمة الوضوء والغسل: هما أمور تعبدية أولا وثانيا : النظافة وبعث النشاط ليقف العبد بين يدي ربه حاضر القلب صافي الروح، والغسل من الجنابة لإزالة ما يعتري الجسم من استرخاء وفتور

صفة الغسل في حجة الله البالغة:

على مَا روته عَائِشَة ومَيْمُونَة، وتطابق عَلَيْهِ الْأمة أَن يغسل يَدَيْهِ قبل إدخالها الْإِنَاء، ثمَّ يغسل مَا وجد من نَجَاسَة على بدنه وفرجه، ثمَّ يتَوَضَّأ كَمَا يتَوَضَّأ للصَّلَاة، ويتعهد رَأسه بالتخليل، ثمَّ يصب المَاء على جسده ، وَاخْتلفُوا فِي حرف وَاحِد يُؤَخر غسل الْقَدَمَيْنِ أَو لَا ؟

كان إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه مرتين أو ثلاثا ثم يفرغ يمينه على شماله فيغسل فرجه ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يأخذ الماء ويدخل أصابعه في أصول الشعر حتى إذا رأى أن قد استبرأ حفن على رأسه ثلاث حثيات ثم أفاض على سائر جسده ثم غسل رجليه. أخرجاه

وكان يبدأ بشق رأسه الأيمن ثم الأيسر. أخرجاه

وكان لا يتوضأ بعد الغسل ، ويكفي المرأة أن تحثي على رأسها ثلاث حثيات ثم تفيض عليها الماء فتطهر (م هـ)

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله – ﷺ – إذا اغتسلَ من الجنابةِ غسلَ يديه،

وتَوضَّأ وُضوءَهُ للصَّلاةِ، ثم اغتسلَ، ثم يُخلِّلُ بيدِه شَعرَهُ حتَّى إذا ظنَّ أنَّه قد أَرْوى بَشَرَتَهُ، أفاضَ عليه الماءَ ثلاثَ مرّاتٍ، ثم غَسَلَ سائِرَ جَسَدِه . ق

وقالتْ: كنتُ أغتسلُ أنا ورسولُ الله – ﷺ – من إناءٍ واحدٍ نغترفُ منه جَمِيعًا. متفق عليه

وعن ميمونةَ رضي الله عنها قالتْ: وضعَ رسولُ الله – ﷺ – وَضُوءَ الجنابةِ، فأكفأَ بيمِينه على يَسارِه مرتين أو ثلاثًا، ثم غسلَ فَرْجَهُ، ثم ضَرَبَ يدَه بالأرضِ أو الحائطِ مرتين أو ثلاثًا، ثم تمضمض واستنشَقَ، وغسلَ وجهَهُ وذِرَاعيه، ثم أفاضَ على رأسِهِ الماءَ، ثم غسلَ جسدَه، ثم تنحّى فغسَلَ رِجْلَيه، فأتيتُه بخِرْقَةٍ فلم يُرِدْها، فجعلَ ينفُضُ الماءَ بيده. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

عن أمِّ سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسولَ الله! إني امرأةٌ أشدُّ ضَفْرَ رأْسِي، أفأنقُضُه لغُسلِ الجنابةِ؟ فقال: "لا. إنما يكفِيكَ أن تَحْثِي على رأسِكِ ثلاثَ حَثَياتٍ، ثم تُفِيضِينَ عليك الماءَ، فتطهُرين". م

التيمم

{فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}: {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا}: الصعيد: وجه الأرض؛ أي: التراب. لماذا التراب؟ أو الحكمة من التيمم بالتراب؟

فقد ثبت علمياً: أن التراب مادة معقمة تحوي على كثير من الكائنات الحية التي لها القدرة على إنتاج بعض المضادات الحيوية التي تعجز المضادات الحيوية المستعملة أن تقضي على مسببات الأمراض من الجراثيم، أو البكتيريا، أو الحمَّات الراشحة، وتعادل الماء في التطهير، وهناك من يعالج بالطين، فعلينا أن لا نظن أن التيمم عملية رمزية معنوية، بل هي معجزة إلهية حقيقية.

{طَيِّبًا}: أيْ: طاهراً من النجاسة (تراباً طاهراً). {فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ}: منه: تعود على الصعيد، فيضرب بكفيه وجه الأرض (الصعيد الطيب)، فيمسح بهما وجهه، وكفيه، ظاهراً وباطناً مرة واحدة.

وبعض المفسرين قالوا: منه: تعني: التراب وحده، وليس الحجارة، أو الرمل، أو الخشب، ومنهم من قالوا: منه تعني: ابتداء الغاية، وغيرها من الأقوال، فالوضوء فرضاً، ويعني: طهارة

أربعة أعضاء: الوجه، واليدين إلى المرفقين، والرأس، والرجلين إلى الكعبين.

والتيمم: يعني: طهارة عضوين (الوجه واليدين).

والخلاصة: إذا كنتم على حال من الأحوال الأربعة المتقدمة (المرض والسفر والحدث الأصغر والأكبر) ولم تجدوا ماء، أي فقدتم الماء، أو كنتم محتاجين له، فاقصدوا (تيمموا) ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهرا لا نجاسة فيه، فاضربوا بأيديكم عليه وامسحوا وجوهكم وأيديكم، ومسح اليد يكون إلى المرفق في رأي الحنفية والشافعية، كما في الوضوء، والتيمم بدل عن الوضوء وفي صحيح البخاري عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أُصِبِ الْمَاءَ؟ فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَمَا تَذْكُرُ أَنَّا كُنَّا فِي سَفَرٍ أَنَا وَأَنْتَ، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكْتُ فَصَلَّيْتُ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا. فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَفَّيْهِ الْأَرْضَ، وَنَفَخَ فِيهِمَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيْهِ» ، وهناك تفاصيل أخرى لدى أهل العلم والله تعالى اعلم .

{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}: {يُرِيدُ اللَّهُ}: جاء بالفعل المضارع يريد، ولم يقل: أراد الله؛ ليدل على التجدد والتكرار في التيسير، ورفع الحرج، وتكرار الثواب والأجر، وإتمام النِّعمة، ولو قال: أراد الله؛ تعني: مرة واحدة، لا تتكرر.

{لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ}: الحرج: هو الضيق، والمشقة، وكلمة حرج؛ مشتقة من الحرج، وهي الشجر الملتف؛ الذي لا يمكن الدخول فيه، ولا الخروج منه. {يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ}: طهارة حسية، وكذلك معنوية، يطهركم من الذنوب والآثام ومن الشرك.

{وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}: يتم نعمته عليكم: بالترخيص في التيمم، والواو في وليتم؛ تعني: إضافة إلى النِّعم الأخرى التي أنعمها الله عليكم، وبالثواب على ما شرعه لكم، وعلى طاعتكم.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}: تشكرون: تؤدُّون الشكر الواجب عليكم، على هذه الرخص في العبادات، ولا تنسوا المنعم هو الله، والدوام على الشكر.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)} [المائدة]

نداء جديد للذين آمنوا؛ أيْ: على درب الإيمان، نداء فيه تحذير {مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ}: يرجع عن الإسلام إلى الكفر، ومنها الردة، وهو رجوع المسلم، العاقل، البالغ عن الإسلام إلى دِين آخر باختياره، دون إكراه من أحد، وينشرح صدره بالكفر.

بعد أن يُبيِّن له عواقب الردّة ويستتاب، سواء أكان ذكراً، أو أنثى، ويقام عليه حد الردة إذا توافرت فيه الشروط. ويستثنى من ذلك: الصبي، والمجنون، والمكره.

{فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}: فسوف يأتي الله بخير منهم، ممّن يحبون الله، ويحبّهم الله تعالى. قدم حبه على حبهم؛ لأن حبه سبحانه وتعالى هو الغاية.

والحب هو: الميل القلبي، والإقبال على الشيء، والدوام على ذلك، وقد ينقص، أو يزيد، أو يزول.

قال تعالى: {مَنْ يَرْتَدَّ}: يرتد: يرجع عن دينه (الإسلام) إلى الكفر، ولم يقل: يرتدد؛ بفكّ الإدغام، فما هو الفرق بين يرتدّ ويرتدد؟

{يَرْتَدَّ}: جاءت في سياق الارتداد، في زمن السلم، والعافية ومن دون سبب يبرر الارتداد.

بينما يرتدد: جاءت في سياق الارتداد في زمن الحرب، أو الفتنة، أو القتل (الموقف أشد وأخطر)، ولذلك زيدت الدال؛ لشدّة وخطورة الحال.

وقيل: حدثت هذه الرِّدَّة التي تحدث عنها القرآن على مرحلتين:

١ - في زمن الرسول، والذين ارتدوا هم: بنو مدلج، وبنو حنيفة (قوم مسيلمة الكذّاب)، وبنو أسد.

٢ - ردَّة في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ارتدت قبائل غطفان، ومرارة، وبنو سليم، وبنو

يربوع، وغيرهم.

{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}: أيْ: رحماء بينهم، متوادّون، متعاطفون، متواضعون، يغلب عليهم طابع الرحمة والرأفة على المؤمنين أيْ: عاطفين على المؤمنين من وجه التواضع والتذلل. ولو قال: أذلة للمؤمنين؛ لكان ذمّاً لهم لا مدحاً، وأذلة للمؤمنين؛ تعني: الخنوع، والاستكانة.

{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}: أيْ: أشداء على الكافرين (على عدوهم).

{يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}: يجاهدون لإعلاء كلمة الله تعالى، وإعلاء دِينه {وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ}: لا يخافون قول قائل، ولا اعتراض معترض، ولا لوم لائم، واللوم: هو توبيخ، أو تقريع الفاعل على فعله، وتهجين طريقته.

{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}: يشير إلى الجهاد في سبيل الله، وكونهم أعزة على الكافرين. {وَاللَّهُ وَاسِعٌ}: واسع الفضل، والملك، والإحسان، والجود، والغنى، والعلم، واسع الملك. {عَلِيمٌ}: بمن يستحق فضله، وعليم بذات الصدور، عليم ببواطن وظواهر الأمور، صيغة مبالغة: كثير العلم

موضوع الآيات بيان قدرة الله العظيمة على استبداله بالمرتدين من هو خير لدينه وإقامة شريعته، وهو من كان أصلب دينا وأشد منعة وأقوم سبيلا، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ} وقال تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ} وقال ﷻ: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} أي بممتنع ولا صعب

يا أيها المؤمنون من يرجع عن الحق إلى الباطل، فيترك دينه في المستقبل فسوف يأتي الله بقوم بديل عنهم وصفهم القرآن بست صفات:

١ - يحبهم الله تعالى: أي يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم، ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم.

٢ - ويحبون الله تعالى: باتباع أمره واجتناب نهيه، وإطاعته وابتغاء مرضاته، والبعد عما يوجب سخطه وعقابه.

٣ – أذلة على المؤمنين. ٤ – أعزة على الكافرين: أي عاطفين على المؤمنين متواضعين لهم، أشداء متعالين على الكافرين المعادين لهم، وهما نحو قوله تعالى: {أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ} وقوله ﷻ في عزة الإيمان: {وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}

٥ – يجاهدون في سبيل الله: أي يقاتلون من أجل رفعة كلمة الله ودينه، وسبيل الله: هو طريق الحق والخير والفضيلة والتوحيد المؤدي إلى مرضاة الله، والدفاع عن الوطن والأهل والديار.

٦ – لا يخافون لومة لائم: لا يخشون لوم أحد واعتراضه ونقده؛ لصلابتهم في دينهم، ولأنهم يعملون لإحقاق الحق وإبطال الباطل، على نقيض المنافقين الذين يخافون لوم حلفائهم اليهود.

ثم قال تعالى: {ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ} أي ذلك المذكور من الصفات التي وصف بها القوم: وهي المحبة والذلة للمؤمنين والعزة على الكافرين والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة، هو من فضل الله يعطيه من يشاء، ويوفق إليه من يريد، والله واسع، أي ذو سعة فيما يملك ويعطي كثير الأفضال، عليم بمن هو أهلها، فهو تعالى واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك، ممن يحرم منه

١ – تضمنت الآيات وعيدا لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة النبي ﷺ، وإخبارا غيبيا أنه سيرتد قوم من الناس.

كما تضمنت أيضا وعدا من الله لمن سبق له في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه، ولا يرتد.

فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد قوم من أهل القبائل، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم، ووفى للمؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده.

النهي عن المنكر

{ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) } [المائدة]

{لُعِنَ}: اللعن: الطرد من الرحمة، رحمة الله، والإبعاد عن الخير، في الدنيا والآخرة.

{الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ}: الذين كفروا من بني يعقوب وذريته. كانوا يسمّون بني

إسرائيل في زمن يعقوب -عليه السلام- ، وكذلك في زمن موسى -عليه السلام- ، فلما تغيروا وعصوا؛ دعاهم اليهود، وكلمة بني إسرائيل أفضل من كلمة اليهود تعريفاً ومعنىً.

{عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}: أيْ: لعن داود الذين اعتدوا يوم السبت من أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر، وعصوا الله؛ أيْ: دعا عليهم بالعذاب، والطرد من رحمة الله، وكذلك لعن عيسى -عليه السلام- الذين كفروا وعصوا من بني إسرائيل، ومن خالف من أصحاب المائدة. وقيل: لعنوا في التوراة، والإنجيل، والزبور.

{ذَلِكَ}{بِمَا عَصَوْا}: الباء: باء السببية، أو البدلية، عصوا: أوامر الله ورسله، ولم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وبسبب بغيهم، وظلمهم، وفسادهم في الأرض.

{وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}: يعتدون بصيغة المضارع التي تدل على تجدد والتكرر الاعتداء منهم وأنه مستمر {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}: لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المنكر، والفواحش.

{عَنْ مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}: جاء بالمنكر؛ كنكرة؛ ليدلّ على الإطلاق، قولاً، أو فعلاً، مثل: صيد البحر يوم السبت، أو أخذ الرشوة، والربا، أو يشمل كل ذلك، وغيره من أنواع المنكر. {لَبِئْسَ}: فعل من أفعال الذم.

{مَا}: بمعنى الذي، أو مصدرية. {يَفْعَلُونَ}: ما يفعلون من المنكر، ويقومون به

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَأَسْوَاقِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ "، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: " لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا "

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود قال قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا

يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ {فَاسِقُونَ} ثُمَّ قَالَ: كَلَّا وَاللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»

وأخرج احمد والترمذي عن حذيفة بن اليمان أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ "

قوله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ في لعنهم قولان:

أحدهما: أنه نفس اللعن، ومعناه المباعدة من الرحمة. قال ابن عباس: لُعنوا على لسان داود، فصاروا قردة، ولعنوا على لسان عيسى في الإنجيل. قال الزجاج: وجائز أن يكون داود وعيسى أُعْلِمَا أن محمداً نبيّ، ولعنا من كفر به. والثاني: أنه المسخ، قاله مجاهد، لعنوا على لسان داود فصاروا قردة، وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير. وقال الحسن، وقتادة: لعن أصحاب السبت على لسان داود، فانهم لما اعتدوا، قال داود: اللهم العنهم، واجعلهم آية، فمسخوا قردة. ولعن أصحاب المائدة على لسان عيسى، فانهم لما أكلوا منها ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت، فجُعلوا خنازير.

قوله تعالى: ذلِكَ بِما عَصَوْا أي: ذلك اللعن بمعصيتهم لله تعالى في مخالفتهم أمره ونهيه، وباعتدائِهم في مجاوزة ما حدّه لهم.

قوله تعالى: كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ التناهي: تفاعل من النهي، أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر. وذكر المفسّرون في هذا المنكر ثلاثة أقوال: أحدها: صيدُ السّمك يوم السبت. والثاني: أخذ الرشوة في الحكم. والثالث: أكل الربا، وأثمان الشحوم. وذِكْر المنكر منكَّراً يدل على الإطلاق، ويمنع هذا الحصر، ويدلُ على ما قلنا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ

اللهَّ ﷺ : " إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ إِذَا رَأَى أَخَاهُ عَلَى الذَّنْبِ نَهَاهُ عَنْهُ تَعْذِيرًا ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَمْ يَمْنَعْهُ مَا رَأَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ ، وَخَلِيطَهُ ، وَشَرِيبَهُ ، فَلَمَّا رَأَى اللهُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ {ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١] " ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيِ الْمُسِيءِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُّ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: « أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، فَقَالَ: قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .»

أحكام الأيمان

قال تعالى {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُّ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُّ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)} [المائدة]

مناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا قال تعالى :لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ...؛ وكان التحريمُ يقعُ في غالِبِ الأحوالِ بأيمانٍ معزومةٍ، أو بأيمانٍ تَجري على اللِّسان لقصدِ تأكيدِ الكلامِ، أو تجري بسبب غضبٍ، عقَّب الله تعالى ذلك بقوله : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُّ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ .أي: لا يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بكفَّارةٍ تَلزمُكم في الدُّنيا، ولا بعُقوبةٍ تَحُلُّ بِكم في الآخِرة، على الأيْمانِ التي صدَرَتْ منكم على وجهِ اللَّغْو، وهي الأيْمانُ التي حلَف بها المُقسِمُ مِن غير نيَّةٍ ولا قَصْدٍ، أو عقَدَها يظنُّ صِدْقَ نفْسِه، فبان الأمرُ بخِلافِ ما ظنَّه .وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ. أي: ولكن يُعاقِبُكم اللهُ تعالى بما عقدتُم

العزمَ عليه، وقَصدتموه مِن الأَيْمان .

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ .أي: كفَّارةُ ما حَنِثْتُم فيه من اليمينِ المعقودةِ؛ إطعامُ عَشَرةِ مَحاويجَ ليس لدَيهم ما يَكفِيهم، مِن صِنفٍ وَسَطٍ بين الجيِّد والرَّديء، ممَّا تُطعمون أَهْلِيكم .أَوْ كِسْوَتُهُمْ. أي: وإمَّا كسوةُ عَشرةِ مَساكين . أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ. أي: أو فكُّ عبدٍ مُؤمنٍ مِن أَسْرِ العُبوديَّة . فمَتَى فعَل واحدًا مِن هذه الثلاثةِ التي هو مخيَّرٌ فيها، فقدِ انحلَّتْ يمينُه .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.أي: فمَن لم يَقْدِرْ على التَّكفيرِ عن يمينِه بواحدةٍ مِن هذه الخِصالِ الثَّلاث، فعليه أنْ يَعدِلَ إلى الصِّيامِ، فيصومَ ثلاثةَ أيَّام .

ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ. أي: هذا الذي ذَكرتُه لكم مِن الخِصالِ الأربعِ (الإطعام، والكسوة، وتحرير رَقبة، والصِّيام)، يُكفِّرُ ما حَنِثتُم فيه من الأيمانِ المعقودةِ .

وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ. أي: واحْفَظوا- أيُّها المؤمنون- أيمانَكم عن الحَلِف بالله تعالى كَذِبًا، وعن كثرةِ الحَلِف، وعن الحِنْثِ فيها- إلَّا إنْ كان الحِنثُ خَيرًا- وعن ترْكِ الكفَّارة إذا لزِمَتْكُم .كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .أي: كما أوضحَ اللهُ تعالى لكم كفَّارةَ أيمانِكم، فإنَّه يُوضِّحُ لكم أيضًا آياتِه الشرعيَّةَ، وأعلامَ دينِه؛ لتَشْكُروه سبحانَه على ذلك حيثُ علَّمكم ما لم تكونوا تَعلمُون .

الفوائد:

*تَصديرُ الخِطابِ بالنِّداء في قولِه :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يدلُّ على أهميَّته؛ لأنَّ النِّداءَ يَستلزمُ انتباهَ المخاطَب، وإصدار الخِطابِ بوصْفِ الإيمانِ يدلُّ على أنَّ ما سيُذكَر مِن خِصال الإيمان، وأنَّ مُخالفتَه نقْصٌ في الإيمانِ، ثم إنَّ فيه إغراءً للامتثالِ؛ لأنَّك إذا وصفْتَ شخصًا بوصْفٍ لتأمُرَه أو تنهاه، فهذا من بابِ الإغراءِ بهذا الوَصْفِ؛ ولذلك تقولُ لشخصٍ: أنتَ رجلٌ؛ كيف تفعل كذا وكذا؟! فقولك: أنت رجل، يَعني: مُقتضى الرُّجولةِ ألَّا تَفعَلَ، وتقول: يا فلان، أنت كريمٌ، وهذا سائلٌ، يعني: فأَعْطِه .

* قولُه تعالى :وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ، وفي سورةِ البقرة :بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، فيه دليلٌ على أنَّ العِبرة بما في القُلوب، وهذا كقولِ النبيِّ ﷺ "إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى ، ويَنبني عليه مسائلُ كثيرةٌ في الأيمانِ والطَّلاقِ والبيوع والأوقافِ وغيرِها .

* يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه :وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ أنَّه ينبغي تقليلُ الأيمانِ، وحِفظُ اليمينِ عن الحِنْث، هذا إذا لم يكُنْ حلَف بيمينِه على ترْكِ مندوبٍ أو فِعْلٍ مَكروهٍ، فإنْ حلَف على ترْك مندوبٍ أو فِعل مكروهٍ، فالأفضلُ أنْ يَحنثَ في يَمينِه، ويُكَفِّرَ ويأتِيَ الذي هو خيرٌ؛ لحديث أبي هُرَيرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ : مَن حلَف على يمينٍ فرَأى غيرَها خيرًا منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليُكَفِّرْ عن يمينِه .

* أنَّ العِلم مِن نِعَم الله التي يجبُ علينا شُكرُها؛ لأنَّ بيانَ الآياتِ به يَعلمُ الإنسانُ آياتِ الله، فإذا كان اللهُ يُبيِّنها لِنَشْكُرَه عليها، دلَّ ذلك على أنَّ العِلمَ بالشريعةِ وبآياتِ الله نعمَةٌ يجب على الإنسانِ أنْ يَشكُرَها؛ لقول الله تعالى :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

* ذهَب بعضُ العُلماء إلى أنَّ مَن حرَّم مأكلًا أو مَشربًا أو شيئًا من الأشياء، فإنَّه يجب عليه بذلك كفَّارةُ يمينٍ، كما إذا الْتزمَ ترْكَه باليمينِ، فكذلك يُؤاخَذُ بمجرَّد تحريمِه على نفْسِه إلزامًا له بما الْتزَمه؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر هذا الحُكم لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ عقَّبه بالآيةِ المبيِّنة لتكفيرِ اليَمينِ؛ فدلَّ على أنَّ هذا مُنَزَّلٌ منزلةَ اليمينِ في اقتضاءِ التَّكفير، وَكَمَا فِي قَوْلِه تعالى :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ]التَّحْريم:[، ثمَّ قال[قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ] ...التَّحْريم واللهُ تعالى أعلم .

* سَعةُ حِلم الله وعَفْوِه؛ لِقَوْلِه :لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ حيث نفَى المؤاخَذةَ عن اللَّغْو في الأيمانِ؛ وذلك لكثرةِ تَكرارِها، ومَشقَّةِ التحرُّزِ منها، وهذا بناءً على أنَّ المرادَ بها: الأيمانُ التي لا تُقصَد، والتي تكونُ في عَرَضِ الحديثِ .

* قال تعالى :وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ ...احتجَّ الشافعيُّ ﷺ بآيةِ سورة البقرةِ[لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ

حَلِيم] مع هذه الآيةِ على وجوبِ الكَفَّارةِ في اليمينِ الغَموسِ، قال: إنَّه تعالى ذَكَر في آية البقرة :وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وقال في آية المائدة :وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ وعقْدُ اليمين محتمِلٌ لأنْ يكونَ المرادُ منه عقدَ القلبِ به، ولِأنْ يكونَ المرادُ به العَقدَ الذي يُضادُّ الحَلَّ، فلمَّا ذكر في آيَةِ البقرة قولَه :بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ عَلِمْنَا أنَّ المرادَ من ذلك العَقْدِ هو عقدُ القَلْبِ، وأيضًا ذَكَر المؤاخذةَ في آية البقرة، ولم يُبيِّن أنَّ تلك المؤاخذةَ ما هي، وبَيَّنها هنا في آيةِ المائدة بقوله :وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ..؛ فبَيَّن أنَّ المؤاخذةَ هي الكفَّارة، فكلُّ واحدةٍ من هاتين الآيتينِ مُجمَلةٌ من وجهٍ، مُبيَّنة من وجهٍ آخَر، فصارتْ كلُّ واحدةٍ منهما مُفسِّرةً للأخرى مِن وَجْهٍ، وحصَل من كلِّ واحدةٍ منهما أنَّ كلَّ يمينٍ ذُكِر على سبيلِ الجِدِّ وربْط القَلْبِ، فالكفَّارةُ واجبةٌ فيه، واليمينُ الغموسُ كذلِك؛ فكانتِ الكفَّارةُ واجبةً فيها

* أنَّه لا يَنبغي الحِنثُ إلَّا إذا كان خيرًا؛ لقوله تعالى :فَكَفَّارَتُهُ والكفَّارةُ لا تكون إلَّا في مقابلةِ ذَنبٍ أو ما يُشبِهه؛ ولهذا قال في آخِر الآيةِ :وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ .

* قُدِّمَ الإطعامُ على العِتْقِ في قولِه تعالى :فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مع أنَّ العِتقَ أفضلُ لا محالةَ؛ وذلك لأمور:

منها: أنَّ المقصودَ منه التنبيهُ على أنَّ هذه الكفَّارةَ وجبتْ على التخييرِ لا على الترتيب؛ لأنَّها لو وجبتْ على الترتيب لوَجبتِ البَداءةُ بالأَغْلَظِ.

ومنها: قُدِّمَ الإطعامُ لأنَّه أسهلُ، ولِكَوْن الطعامِ أعمَّ وُجودًا، والمقصودُ منه التنبيهُ على أنَّه تعالى يُراعي التخفيفَ والتسهيلَ في التكاليف .

* في قوله تعالى :فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ رقِي مِن الأدْنى إلى الأعلى، فالإطعامُ أيسرُ من الكسوة، كما أنَّ الكسوة أيسرُ مِن العِتْق .

* أنَّ الإطعامَ مُطلَقٌ لا يُشترَطُ فيه التمليكُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يقُلْ: (فللمساكين)، لو قال: (فللمساكين) لكان يُشترَطُ فيه التمليكُ، كما قال في الزكاة :إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ]التوبة: ،

وإنَّما قال :إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ؛ وذلك لأنَّ الطعامَ يُنتفعُ به مرَّةً واحدةً، فلا يُشترط فيه التمليكُ، أمَّا الكسوة فيُشترط فيها التمليكُ، وإلَّا لكان تُعِيرُه الثوبَ ثم تأخُذُه منه .

* أنَّه لو أطعمَ مَن يأكلُ الطَّعامَ – ولو كان صغيرًا – كفَى؛ لِقَوْلِه :إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ

*في قوله تعالى :فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ...فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لو قارنتَ بين إطعامِ عَشَرةِ مساكين وكِسوتهم وعِتق الرَّقبة، لوجدتَ الفَرْقَ كبيرًا، لكنْ لله الحِكمة فيما يَشْرَع؛ فلا يُمكن أن يَعترِضَ مُعترِضٌ على حُكْمِه .

* تمامُ عدلِ الله عزَّ وجلَّ في إيجابِ الأوسَطِ؛ لِقَوْلِه :مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ فالواجب على الإنسانِ هو الوَسَط؛ فالزكاةُ مثلًا على صاحِب الغَنَم الواجبُ الوَسَط، والزكاة في الثِّمار الواجبُ الوَسَطُ، فإنَّه لو أوْجَب الأكملَ والأعلى، لكان في هذا ضرَرٌ على المعطِي، ولو أوجَبَ الأدْنى لكان فيه ضررٌ على الـمُعطَى، أي: المدفوع إليه، فالوسطُ ليس فيه حَيفٌ لا على مَن يجِبُ عليه، ولا عَلى مَن يجبُ له، وهذا لا شكَّ أنَّه من العدالةِ .

* وجوبُ الإنفاقِ على الأهلِ؛ لِقَوْلِه :مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ يعني: كأنَّ هذا أمرٌ مُقرَّر؛ أنَّ الرجل يُطعِم أهلَه، وهذا لا شكَّ فيه؛ أنَّه يجب على الرجلِ أن يُنفقَ على أهلِه؛ قال الله تعالى :الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ النساء: ٣٤

* يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه :أَوْ كِسْوَتُهُمْ أنَّ الكِسْوةَ مُطلقةٌ، فما سُمِّي كِسْوةً حصَل به الإجزاءُ، وهذا يختلفُ باختلافِ الأحوالِ والأزمانِ والأماكنِ والأُمم .

* قولُه تعالى :إِذَا حَلَفْتُمْ فيه دقيقةٌ، وهي التنبيهُ على أنَّ تقديمَ الكفَّارةِ قبلَ اليمينِ لا يجوزُ، وأمَّا بعدَ اليمينِ وقبل الحِنث فإنَّه يجوزُ .

* أنَّ تقديرَ العباداتِ كمِّيةً ونوعًا وكيفيَّةً موكولٌ إلى الشَّرْعِ؛ لِقَوْلِه :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ؛ ولذلك لا يَتقابَلُ أو لا يَتساوى إطعامُ عَشَرةِ مَساكينَ مع صِيام ثلاثةِ أيَّام، فكفَّارة الظِّهارِ الواجبُ فيها صيامُ شَهرينِ متتابعينِ، فإنْ لم يجد فإطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فجاءَ إطعامُ كلِّ فقيرٍ

يُقابل صيامَ يومٍ، لكن هنا يختلفُ الوضع، ولعلَّ السبب- والله أعلمُ - أنَّه في كَفَّارة الظِّهار الإطعامُ بدلٌ عن الصيامِ، فمن لم يستطعِ الصيامَ أطعَمَ، وإذا كان بدلًا عن الصِّيام، فالحُكم أنَّ صومَ كلِّ يوم يُطعِمُ عنه مِسكينًا، كما في العاجِزِ عن الصِّيام عجزًا لا يُرجَى زَوالُه، فإنَّه يُطعِمُ عن كلِّ يومٍ مسكينًا، أمَّا في كفَّارةِ اليمينِ وفِديةِ الأذى، فليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ الأمرَ فيهما على التخييرِ، فكلٌّ من خِصال الكفَّارة نوعٌ مستقلٌّ بنفْسِه .

* أنَّ الله سبحانه وتعالى بَيَّنَ لعبادِه من آياته كلَّ ما يحتاجون إليه؛ لِقَوْلِه :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .

* ممَّا يُستَفادُ مِنْ قَوْلِه :كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ محبَّةُ الله تعالى للشُّكرِ؛ حيث بَيَّنَ الآياتِ لِعِبادِه من أجْل أنْ يَشكُروه .

* تعليلُ أحكامِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّها مقرونةٌ بالحِكمة؛ لأنَّ قَوْلَه :لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ للتعليلِ، والتعليلُ يُفيد الحِكمةَ؛ فجميعُ أفعالِ الله وأحكامِ الله كلُّها لحِكمةٍ، لكنْ منها ما يُعلَم، ومنها ما لا يُعلَم .

تحريم وضلال الجاهلية

{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) } [المائدة]

{مَا جَعَلَ}: ما شرع، ما أوجب، ما أمر، ما صير. والجعل: الجعل: يكون بعد الخلق؛ أي: مرحلة تالية للخلق، وقد يعني: توجيه المخلوق إلى مهمته في الحياة.

انظر أول سورة الأنعام ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] وَقَوْلُهُ: وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ أَشَارَ فِي «الْكَشَّافِ» أَنَّ (جَعَلَ) إِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ فَهُوَ بِمَعْنَى أَحْدَثَ وَأَنْشَأَ فَيُقَارِبُ مُرَادِفَةَ مَعْنَى (خَلَقَ) . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (خَلَقَ) فَإِنَّ فِي الْخَلْقِ مُلَاحَظَةَ مَعْنَى التَّقْدِيرِ، وَفِي الْجَعْلِ مُلَاحَظَةَ مَعْنَى الِانْتِسَابِ، يَعْنِي كَوْنَ الْمَجْعُولِ

مَخْلُوقًا لِأَجْلِ غَيْرِهِ أَوْ مُنْتَسِبًا إِلَى غَيْرِهِ، فَيُعْرَفُ الْمُنْتَسِبُ إِلَيْهِ بِمَعُونَةِ الْمَقَامِ.

فَالظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ لَمَّا كَانَا عَرَضَيْنِ كَانَ خَلْقُهُمَا تَكْوِينًا لِتَكَيُّفِ مَوْجُودَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِهِمَا. وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِذِكْرِ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ عَقِبَ ذِكْرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ، وَبِاخْتِيَارِ لَفْظِ الْخَلْقِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَفْظِ الْجَعْلِ لِلظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها [الْأَعْرَاف: ١٨٩] فَإِنَّ الزَّوْجَ وَهُوَ الْأُنْثَى مُرَاعًى فِي إِيجَادِهِ أَنْ يَكُونَ تَكْمِلَةً لِخَلْقِ الذَّكَرِ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: لِيَسْكُنَ إِلَيْها [الْأَعْرَاف: ١٨٩] وَالْخَلْقُ أَعَمُّ فِي الْإِطْلَاقِ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها [النِّسَاء: ١] لِأَنَّ كُلَّ تَكْوِينٍ لَا يَخْلُو مِنْ تَقْدِيرٍ وَنِظَامٍ.

فالخلق والجعل لله تعالى وحده، وعلينا أن لا نتدخل في ذلك، فالله سبحانه خلق الخنزير؛ ليأكل القاذورات، فعلى الإنسان ألَّا يُغير هذا الجعل، فلا يحوله إلى غير مهمته، فيذبحه ويأكل لحمه.

مثال آخر: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}: التبني هو إفساد في الجعل.

{مَا}: النافية؛ للعاقل، ولغير العاقل.

{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ}: {بَحِيرَةٍ}: إذا ولدت الناقة خمسة بطون؛ آخرها: أنثى شقوا أذنها شقاً واسعاً؛ يعني: بحروا الناقة، وتركوها، فلا تنحر، ولا يُحمل عليها، ولا تطرد من الماء، أو أي مرعى؛ أيْ: تأكل، وترعى أينما تشاء. وهي الناقة التي كانوا يبحرون أذنها، أي يشقونها شقا واسعا، إذا نتجت خمسة أبطن إناثا آخرها أنثى وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها. فإن كان آخرها ذكرا نحروه تأكله الرجال والنساء. وقيل: غير ذلك بأن آخرها ذكر.

{وَلَا سَائِبَةٍ}: الناقة: التي تُسيب بنذرها للآلهة، ولا يحمل عليها، وترعى حيث تشاء. والسائبة الناقة التي كانت تسيّب بنذرها لآلهتهم الأصنام، فتعطى للسدنة، ولا يحمل عليها شيء، ولا يجزّ صوفها ولا يحلب لبنها إلا لضيف.

{وَصِيلَةٍ}: إذا ولدت ذكراً وأنثى في بطن واحد، فلا يذبحونها، ويقال: وصلت أخاها.

والوصيلة الشاة أو الناقة التي تصل أخاها، فإذا بكرت في أول النتاج بأنثى كانت لهم، وإذا ولدت ذكرا كان لآلتهم، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم. وقيل: غير ذلك.

{حَامٍ}: الفحل؛ الذي لقح عشرة أجيال من الإناث، فيقولون: حمى ظهره، فلا يُحمل عليه، ولا يُمنع الماء، والمرعى. والحامي: الفحل الذي يضرب في مال صاحبه فيولد من ظهره عشرة أبطن،

{وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}: الافتراء: هو اختلاف الكذب، والكذب في هذه الآية معرف بأل التعريف مقارنة بـ يفترون على الله كذباً: نكره فالكذب في هذه الآية يتعلق بالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

وكل هذه: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام: هي اختراعات أهل الجاهلية والكفر؛ الذين يفترون على الله الكذب؛ أيْ: يختلقون الكذب، وينسبونه إلى الله، مع أنها مُسخَّرة لخدمة الإنسان؛ ليأكل من لبنها، ويسخِّرها لما يريد، وكيف يشاء، وليس كما زعم الكفار.

{وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}: أكثرهم تعود على الذين كفروا. {لَا يَعْقِلُونَ}: لا: النافية، يعقلون: يفهمون؛ لأنهم يحلِّلون ويحرِّمون كما يشاؤون من دون علم، ولأنهم يفترون على الله الكذب ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦)﴾ [النحل]

{ما جَعَلَ} ما شرع شيئا من هذه الأحكام التي كان العرب يفعلها في الجاهلية، ولا أمر بالتبحير والتسبيب وغير ذلك، ولكنهم يفترون ويقلدون في تحريمها كبارهم.

ما شرع الله أصلا تحريم هذه الأشياء الأربعة، وما حرّم البحيرة ولا السائبة، ولا الوصيلة، ولا الحامي، ولكن أهل الجاهلية بتحريمهم ما حرموا يفترون على الله الكذب، حيث ما كانوا يفعلون ما يفعلون، وينسبونه إلى شرع الله، وأكثرهم لا يعقلون أن ذلك افتراء على الله، وتعطيل للعقل والفكر، وكفر ووثنية وشرك، والله لا يأمر بالكفر ولا يرضاه لعباده.

وكان أول من حرم هذه المحرمات، وشرع للعرب عبادة الأصنام هو عمرو بن لحيّ الخزاعي،

فهو الذي غيّر دين إبراهيم، وبحر البحيرة، وسيّب السائبة وحمى الحامي ، روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا، ورأيت عمرا يجرّ قصبه -أمعاءه-وهو أول من سيّب السوائب».

وروى الطبري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف يجرّ قصبه -أمعاءه-في النار، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك، فقال أكثم: أخشى أن يضرّني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : لا، إنك مؤمن، وهو كافر، إنه أول من غيّر دين إسماعيل، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامي»

الله تعالى خالق الخلق هو مصدر الشرائع والأنظمة كلها للناس، وكل شرع لم يشرعه الله فهو مرفوض، وقد نفى الله تعالى في هذه الآيات تشريع أهل الضلال في الجاهلية، وأعلن لهم: ما سمّى الله، ولا سنّ ذلك حكما، ولا تعبّد به شرعا، وإن علم به وأوجده بقدرته وإرادته خلقا، فإن الله خالق كل شيء من خير وشر، ونفع وضرّ، وطاعة ومعصية ، والخلاصة: لقد حرموا على أنفسهم من الأنعام ما لم يحرمه الله، اتباعا منهم خطوات الشيطان، فوبخهم الله تعالى بذلك، وأخبرهم أن كل ذلك حلال، فالحرام من كل شيء: ما حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ بنص أو دليل، والحلال منه: ما أحله الله ورسوله كذلك .

وقد استدل أبو حنيفة ﷺ بهذه الآية في منعه الأحباس ؛ لذا قرر جمهور العلماء القول بجواز الأحباس والأوقاف؛ لما روي أن ابن عمر في رواية النسائي استأذن رسول الله ﷺ في أن يتصدق بسهمه بخيبر، فقال له رسول الله ﷺ : «احبس الأصل وسبّل الثمرة» أي اجعلها وقفا وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه، وهو حديث صحيح. وقد أجمع الصحابة على مشروعية الوقف.

وقد أجمع الصحابة على مشروعية الوقف، وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا، وعائشة وفاطمة، وعمرو بن العاص، وابن الزبير، وجابرا كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة.

ترك مجلس الخوض في آيات الله

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) } [الأنعام]

سبب النزول: كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : نزلت في أهل الأهواء، والبدع من المسلمين الذين يُؤَوِّلون الآيات بالباطل.

{رَأَيْتَ}: رؤية بصرية، أو فكرية، قلبية. {يَخُوضُونَ}: الخوض: أصله الدخول في الماء الكثير الذي يستر القدمين، وعندها لا يدري إلى أيِّ موقع تقع أو تزل قدميه في هوة، أو حفرة، والخوض يكون من دون اهتداء. {يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا}: ومعنى الخوض في آياتنا: لم تبيِّنه هذه الآية، وإنما بيَّنته آية أخرى، في سورة النساء، الآية (١٤٠)، فقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ}. إذنْ الخوض؛ يعني: الكفر، أو الاستهزاء بآيات الله سبحانه.

وفي هذه الآية كذلك يبيِّن الحكم فيما إذا استمر الصحابة في الجلوس مع الذين يخوضون في الآيات، والحكم هو أنكم إذنْ مثلهم؛ أيْ: في الذنب، والإثم، وبدعهم، ومعتقداتهم الباطلة، {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}: انصرف عنهم، ولا تجالسهم، ولا تستمع لهم، {حَتَّى}: حرف غاية، نهاية الغاية. {حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}: وعندها لا مانع من مجالستهم، والتحدث معهم، إذا غيروا الحديث، أو توقَّفوا عن الخوض.

{وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}: وإذا حدث أنك نسيت أمر النهي، والمنع، ووجدت نفسك تجلس معهم؛ فمجرد ما تتذكر المنع، وعدم مخالطتهم اترك، وانصرف عنهم، إذنْ يمكن أن تنسى، والنسيان من عمل الشيطان الذي يُزين ويشغل الإنسان فلا يتذكر، ولكن بعد الذكرى لا تجلس مع القوم الظالمين.

{الذِّكْرَى}: تذكر النهي. {الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}: المشركين، أو الظالمين، والظالم: هو كلُّ مَنْ يخرج عن منهج الله تعالى يُعد ظالماً لنفسه.

قال ابن الجوزي في الزاد : قوله تعالى: وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فيمن أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: المشركون. والثاني: اليهود. والثالث: أصحاب الأهواء. والآيات: القرآن. وخوض المشركين فيه: تكذيبهم به واستهزاؤهم، ويقاربه خوض اليهود، وخوض أهل الأهواء، والمراء، والخصومات.

قوله تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أي: فاترك مجالستهم، حتى يكون خوضهم في غير القرآن. وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ والمعنى: إذا أنساك الشيطان، فقعدت معهم ناسياً نَهْيَنَا لك، فلا تقعد بعد الذكرى. والذكر والذكرى: واحد. قال ابن عباس: قم إذا ذكرت والظّالمون: المشركون .

{يَخُوضُونَ} المراد به هنا الاسترسال في الحديث، وقد استعمله القرآن أيضا في المشاركة في الباطل مع أهله، وأصل الخوض: الدخول في الماء سيرا أو سباحة. {يَخُوضُونَ فِي آياتِنا} أي يتكلمون في القرآن استهزاء. {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} انصرف عنهم ولا تجالسهم. {وَإِمّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ} أي ينسيك وجوب الإعراض عنهم، فقعدت معهم. {بَعْدَ الذِّكْرى} المراد هنا التذكر. {وَلكِنْ ذِكْرى} المراد هنا التذكير والموعظة. {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الخوض

سبب النزول:

روى الطبري عن السدي في آية {وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ..}. قال: كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النّبي ﷺ والقرآن، فسبوه واستهزءوا به، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. وروي مثل ذلك عن سعيد بن جبير وابن جريج وقتادة ومقاتل .

وإذا رأيت يا محمد وكل سامع مسلم الذين يخوضون في آيات القرآن بالتكذيب والاستهزاء، فانصرف عنهم ولا تجالسهم، حتى يخوضوا في غير حديث الكفر والاستهزاء والتكذيب.

ومثلهم من يخوض في القرآن بتأويله تأويلا باطلا نابعا من البدع والأهواء والآراء الفاسدة، لا تجالسهم واتركهم. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وكذلك لا تجالس كل من يحرف القرآن ويؤول آياته لتكفير مسلم وتضليل مهتد.

فإذا خاضوا في حديث آخر، فلا مانع من مجالستهم والتحدث إليهم ، وإن أنساك الشيطان أيها المسلم النهي والمنع، فجلست مع الخائضين ناسيا، فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء.

والخطاب للرسول وكل سامع مسلم ، فإن تجنبوا مجالسة الخائضين، فلا يحاسبون على خوضهم، وبرئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم.

قدرة الله وآياته الكونية

قال تعالى {إِنَّ اللهَّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُّ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) } [الأنعام]

المناسبة: بعد أن ذكر الله –جل وعلا- : أن عنده مفاتح الغيب، وأنه العليم، بما يجري في كونه، وهو الذي يتوفاكم، وهو القاهر، والمنجي، والقادر، وأنه الواحد الأحد، كما ورد في قصة إبراهيم –عليه السلام- ، وما سيحدث حين الموت والبعث، يذكر بعض الآيات، والأدلة على قدرته في الخلق والإيجاد، ويبدأ بمثال فلق الحب والنوى، ثم ينتقل إلى مثال آخر، هو فالق الإصباح فيقول: {إِنَّ اللهَّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}: فالق: أي: شاقّ الحب والنوى، ويعني ذلك: خالق الحب والنوى، فينبت به الزرع على اختلاف أصنافه، من الحبوب والثمار على اختلاف أشكالها. {الْحَبِّ}: مثل القمح، والشعير، والأرز الذي ليس له نوى. {وَالنَّوَى}: له نواة؛ مثل: البلح، والخوخ، وقسم نجد له نواة، وداخل النواة شيء آخر، مثل: بذرة البطيخ. {فَالِقُ}: صفة لذات الله ثابتة؛ أي: قبل أن يوجد الحب والنوى؛ الذي يفلقه كان فالقاً، وبعد أن وجد الحب والنوى؛ كذلك يفلقه.

وكذلك مخرج: صفة لذات الله، مثل: الرزق؛ أي: رزاق، قبل أن يوجد أيُّ مخلوق يرزقه، وبعد أن خلقه يرزقه. إذنْ: مثل هذه الأسماء والصفات؛ تدل على الثبوت.

{يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ}: يجب أن نعلم: أن كل شيء خلقه الله فيه حياة؛ حتى الجمادات، مثل: الحجارة، والحديد، والمعادن؛ كلٌّ له حياته الخاصة به حتى تقوم الساعة، وكل شيء يسبح بحمد؛ لقوله: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]، {كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، وما دام كل شيء هالك؛ فكلُّ شيء فيه حياة، فلا يعني أن الشيء إذا لم يتحرك أمامنا، ويحس ليس فيه حياة، كما كان يعتقد القدامى؛ فالله يخاطب الأكثرية من الناس بمقدار علمهم على كون الشيء حياً أو ميتاً، وليس علمه بالأشياء، أو علم القلة من العلماء.

فالله سبحانه حين يقول: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ}، الميت الذي لا حسَّ فيه، ولا حركة، فهو يخاطبنا، كما نفهم الأشياء، بشكل ظاهري. وبمفهوم الإعجاز العلمي اليوم: لا يوجد شيء ميت، وإن كان لا حسَّ له ولا حركة، مشاهدة بالعين، وبمفهوم الإعجاز العلمي اليوم: نستطيع أن نفسر {يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ}: أي: يخرج الحي من الحي، ويخرج الميت (الحي) من الحي، فكل شيء فيه حياة.

مثال: نجد في كثير من كتب التفسير؛ تفسير هذه الآية بأنه يخرج الحي (الدجاجة) من الميت (البيضة)، البيضة في نظر الكثير تعتبر شيئاً ميتاً، وهذا غير صحيح بمفهوم العلم الحديث.

وإذا نظرنا إلى هذه الآية: {يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ}: نجد كلمة يخرج ومخرج؛ فكلمة {يُخْرِجُ}: فعل مضارع، والفعل يدل على التجدد، والتكرار، والاستمرار.

وكلمة {وَمُخْرِجُ}: اسم (صفة): تدل على الثبوت، صفة ثابتة لذات الله ﷻ، فبذلك جمع صفات الكمال التي تشمل التجدد والثبات معاً.

انتبه إلى قوله –جل وعلا– : {يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ}: جاء بالفعل {يُخْرِجُ}: ثم قال –سبحانه وتعالى– : {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ}: فجاء بالاسم (مخرج).

جاء بالفعل {يُخْرِجُ}: مع الحي؛ لأن من أبرز صفات الحي: الحركة والتجدد، وجاء بالاسم {وَمُخْرِجُ}: مع الميت؛ لأن أبرز صفات الميت السكون، وعدم الحركة؛ لأن من صفات الاسم:

الثبوت؛ فهو يماشي السكون وحده (الموت).

{فَأَنَّى}: أنّى: استفهام إنكاري، وفيها معنى الذم التعجب؛ أيْ: لا مبرر لكم؛ لعدم إيمانكم، وعباداتكم إياه وحده، و (أنى): تعني كيف، ومن أين لكم؟ {تُؤْفَكُونَ}: من أفكه عن الشيء: صرفه عنه وقلبه، باستخدام الكذب كوسيلة. فكيف تصرفون عن الإيمان به، وعبادته إلى عبادة غيره -جل وعلا- ، أو تصرفون عن خالقكم، إلى غيره، فكيف حدث ذلك، أو من أين لكم هذا؟

في التفسير المحرر الدرر السنية:

يُخبِر تعالى أنَّه وَحْدَه هو مَن يشُقُّ الحَبَّ فيُخْرِج منه الزُّروعَ، ويشُقُّ النَّوى فيُخْرِج منه الغُرُوسَ والشَّجَر، يُخْرِج سبحانه الحيَّ من الميِّتِ، ويُخْرِجُ الميِّتَ من الحيِّ؛ كإخراجِه تعالى الإنسانَ من النُّطْفة، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ذلكم الذي صَنَعَ ذلك هو اللهُ تعالى، فكيفَ تُصْرَفونَ عن هذه البَراهينِ، وتعبدونَ معه غيره؟!

والله سبحانَه يشقُّ ظُلمةَ الليلِ بضياءِ الصُّبحِ، وهو مَنْ جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا لكلِّ متحَرِّكٍ بالنَّهارِ، فيهدَأُ في اللَّيلِ ويرتاحُ، وجَعَل الشَّمْسَ والقَمَرَ يجريانِ بحِسابٍ مُقَنَّنٍ مُقدَّرٍ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ.

وهو الذي جَعَلَ النُّجومَ علاماتٍ وأدلَّةً، يهتدي بها النَّاسُ في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ، قد ميَّزَ وفَصَّل تعالى الآياتِ، ووضَّحَها لقومٍ يَعْلمونَ.

وهو تعالى الذي أوجَدَ جميعَ البَشَرِ مِن آدَمَ عليه السَّلام، وقد خَلَقَه اللهُ من ترابٍ، ثم صار البَشَرُ نُطَفًا أودَعَها اللهُ في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ يَنْقِلُها فتَستقِرُّ في أرحامِ الأمَّهاتِ، قد ميَّزَ اللهُ الآياتِ وفَصَّلَها، ووضَّحَها لقومٍ يفهمونَها، فيعرفونَ مرادَ الله.

وهو سبحانه الذي أنزلَ من السماءِ المَطَرَ، فأخرج به نباتَ كُلِّ شيءٍ، فأخرَجَ سبحانه من نباتِ كُلِّ شيءٍ زَرْعًا وشَجَرًا أخضَرَ رَطْبًا، ثم يخلُقُ بعد ذلك فيه الحَبَّ والثَّمَر، يرَكَبُ بعضُه بعضًا؛ كالسَّنابِلِ ونحوِها، وأخرج تعالى مِن طَلْعِ النَّخْلِ عُذوقًا قريبةً سَهْلَةَ التناوُلِ، وأخرج سبحانه

بساتينَ من أعنابٍ، وأخرج شَجَرَ الزَّيتونَ، والرُّمَانَ؛ يتشابَهُ في وَرَقِه وشجرِه، ويختَلِفُ في ثَمَره شكلًا وطعمًا، ثم أمَرَ اللهُ عبادَه أن ينظرُوا إلى ثَمرِه عند بُدُوِّه وطُلُوعِه، وعند نُضْجِه، نَظَرَ تفكُّرٍ وتدبُّرٍ؛ فإنَّ في ذلك آياتٍ لقومٍ يؤمنونَ .

(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ التَّوحيدَ، وأَردَفَه بتَقريرِ أمْرِ النبوَّةِ، عاد إلى ذِكْرِ الدلائِلِ الدَّالَّةِ على وجودِ الصَّانِعِ، وكمالِ قُدْرَتِه، وحِكْمَتِه، وعِلْمِه؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ الأصليَّ من جميع المباحِثِ العقليَّة والنقليَّة: معرفةُ الله بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه .

وأيضًا لَمَّا كان قد تقدَّمَ ذِكْرُ البعثِ نبَّهَ على قُدرَته تعالى الباهِرَةِ في شَقِّ النَّواةِ مع صَلابَتِها، وإخراجِه منها نَبْتًا أَخْضَرَ لَيِّنًا إلى ما بعد ذلك؛ مما فيه إشارةٌ إلى القدرةِ التامَّةِ والبعثِ والنَّشْرِ بعد الموت ، فقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى. أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ وَحْدَه- أيُّها النَّاسُ- هو اللهُ الذي يشقُّ الحبَّ في الثَّرَى، فتَنْبُتُ الزروعُ على اختلافِ أصنافِها من الحبوبِ، ويشُقُّ النَّوى، فتَخْرُجُ الغُرُوسُ والأشجارُ، على اختلافِ أنواعِها من الثِّمَارِ .

كما قال تعالى :﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ. أي: يُخرِجُ السنبُلَ الحيَّ من الحَبِّ المَيِّتِ، ومُخْرِجُ الحَبِّ الميِّتِ من السُّنبُلِ الحيِّ، والشَّجَرَ الحيَّ من النَّوى الميِّتِ، والنَّوى الميِّت من الشَّجَرِ الحَيِّ، كما يُخْرِجُ الإنسانَ من النُّطفَةِ، والنُّطْفَةَ من الإنسانِ، ويُخْرِجُ الدَّجاجةَ من البَيْضَةِ، والبيضةَ من الدجاجَةِ .

ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. أي: ذَلِكم الذي خَلَق ودَبَّر كلَّ تلك الأشياءِ العظيمةِ المُبْهِرَة، هو اللهُ المستحِقُّ للعبوديَّةِ وحْدَه لا شريكَ له، فكَيْفَ تُصْرفونَ عن هذه البراهينِ، والآياتِ العجيبةِ

الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ ربِّكم وجلالِه، وكمالِ قُدرَتِه، وأنَّه المعبودُ وحده، ثم تَصُدُّونَ مع ذلك عن عبادةِ مَن هذا شَأْنُه، فتُسَوُّونَ به غيرَه، وتعبدونَ معه مَن لا يَمْلِك لنفْسِه نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشُورًا؟ أين تذهبُ عقولُكم عن ذلك ؟!

قال تعالى {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}: {فَالِقُ}: شاق، أو شاقق: ظلمة الليل؛ ليخرج النور. {الْإِصْبَاحِ}: هو الضوء، أو النور؛ الذي نراه قبل شروق الشمس، هذا يسمَّى الإصباح، ويعني: الصبح. وجاء بالاسم؛ فالق: ليدل على أن ذلك صفة ثابتة؛ لذاته، منذ الأزل، قبل أن يخلق الليل والنهار، والشمس والقمر. {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا}: الجعل: يكون مرحلة تالية للخلق. {اللَّيْلَ سَكَنًا}: يسكن فيه الناس عن الحركة؛ للراحة والهدوء، وهذا من رحمة الله بالإنسان؛ لكي يرتاح ويعود نشيطاً في الصباح، ويزاول عمله مرة أخرى. وفي آية أخرى قال تعالى: {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} [الفرقان: ٤٧]. لباساً؛ أيْ: يستركم بظلامه، كما يستركم اللباس.

{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}: حسباناً؛ أيْ: لحساب الزمن بالساعة، والدقائق، والثواني، حساباً دقيقاً، لا يتغير، ولا يضطرب. والشمس: تستعمل لحساب اليوم، والسنة. والقمر: يستعمل لحساب الليلة، والشهر. فدورة الأرض حول محورها (نفسها) دورة كاملة تحدد لنا اليوم. ودورة القمر حول الأرض دورة كاملة تحدد لنا الشهر. ودورة الأرض حول الشمس دورة كاملة تحدد لنا السنة. وتختلف السنة القمرية عن السنة الشمسية بـ (١١) يوماً، وتوالي الليل والنهار، وحركة الشمس والظل يحدد لنا الزمن، واليوم، والساعة.

أما قوله ﷻ : {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [الرحمن: ٥]، بحسبان هنا تعني: مخلوقتين بحساب دقيق من حيث الدوران، والحجم، والبعد عن الكواكب الأخرى والمجرات.

{ذَلِكَ}: ويشير إلى الحساب، أو الحسبان، من تقدير. {تَقْدِيرُ}: من قدرة، أو تقدير؛ أيْ: حساب. {الْعَزِيزِ}: أي: القاهر، والغالب، والممتنع، والذي سخرهما: الشمس والقمر، وقهرهما. {وَجَعَلَ اللَّيْلَ}: أيْ: سخر الليل والنهار، أو آية الليل والنهار إشارة إلى كروية

الأرض، فالقسم المواجه للشمس يضيء بفضل وجود الطبقة الغازية المحيطة بالأرض، والتي سُمكها (٢٠٠ كم)، هذه الطبقة الغازية التي إذا وقع عليها ألوان الطيف، أو حزمة الشمس المضيء أخرجت لنا نور الشمس الأبيض، وأما القسم من الأرض، أو النصف غير المقابل للشمس فيكون فيه الليل.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ على باهِرِ حِكْمَتِه وقُدرَتِه بدَلالةِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ، وذلك من الأحوالِ الأرضيَّةِ- استدَلَّ أيضًا على ذلك بالأحوالِ الفَلَكِيَّةِ؛ لأنَّ فَلْقَ الصُّبْحِ أعظَمُ من فَلْقِ الحَبِّ والنَّوى؛ لأنَّ الأحوالَ الفَلَكِيَّة أعظمُ وَقْعًا في النفوسِ من الأحوالِ الأرضيَّةِ ، فقال تعالى: فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا .أي: هو سبحانه الذي يشَقُّ ظُلمَةَ اللَّيلِ وسَوادَه شيئًا فشيئًا، حتى يَضمَحِلَّ، ويَخلُفَه النَّهارُ بضِيائِه وإشراقِه، فيتحَرَّكَ فيه الخَلْقُ لمنافِعِ دِينِهم ودُنياهم، وهو سبحانه الذي جَعَلَ اللَّيلَ مُظْلِمًا، فيسْكُنُ فيه كلُّ مُتحرِّكٍ بالنَّهارِ، ويهدأ فيه ويرتاح مستَقِرًّا في مَسكَنِه ومأواه، ثم يُزيلُ اللهُ ذلك بضياءِ النَّهارِ، وهكذا أبدًا إلى يومِ القيامةِ . كما قال تعالى :قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ]القصص

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .أي: وجعَلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ مُقدَّرٍ، لا يتغيَّر ولا يَضْطرِبُ، فيدوران لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها، فبهما تُعرَفُ الأزمِنَةُ والأوقاتُ، وتنضَبِطُ أوقاتُ العباداتِ، وآجالُ المعاملاتِ، وغيرُ ذلك . كما قال تعالى :هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]يونس

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. أي: هذا تقديرُ الذي عَزَّ سُلطانُه، فلا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، ولا يقدِرُ

أحدٌ أراده بسوءٍ وعقابٍ من الامتناعِ منه، فهو الغالِبُ، الذي انقادَتْ له هذه المخلوقاتُ العظيمةُ، مُذَلَّلةً مُسخَّرَةً بأمْرِه، وهو سبحانه العليمُ، الذي أحاط عِلمُه بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بمصالحِ خَلْقِه .كما قال سبحانه :وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.وقال تعالى ... :فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

قال تعالى {وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}:

{جَعَلَ لَكُمُ}: الجعل يأتي بعد الخلق، والجعل يعني: التصيير، وجعل؛ تعني: صير، واللام: لام الاختصاص؛ أيْ: لكم خاصة. {النُّجُومَ}: جمع نجم، والنجم هو: كتلة مشتعلة تضيء ما حولها؛ كالشمس، ويقدِّر علماء الفلك: أن في مجرتنا سِكَّة التبَّانة نحو تريليون نجم.

{لِتَهْتَدُوا}: اللام: لام التعليل، والتوكيد للهداية، ومعرفة الاتجاهات والسير، سواء كان في البر، أم في البحر. {فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}: في الأماكن النائية، والمظلمة؛ حيث لا يعرف شمالها من جنوبها، وشرقها من غربها، كما هي الحال في الصحارى والبحار.

{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}: بيَّنَّاها بأساليب متعدِّدة، الآيات الكونية، مثل: الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنجوم، {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}: يعلمون: كون الشمس والقمر حُسباناً وجعل الليل سكنا والشمس يدل على كروية الأرض؛ فهذه الأمور لا يعلمها حقيقة إلا نخبة من العلماء ولذلك قال تعالى: {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}؛ أيْ: فصَّلناها؛ كي يدركها، وينظر إليها الذين درسوا العلم الفلكي، والعلوم الكونية، ثم يستدلون بها على وحدانية الله، وقدرته العظيمة.

بعد ذكر الآيات الكونية ينتقل إلى ذكر آيات الخلق وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. أي: وهو سبحانه الذي خَلَقَ النُّجومَ لكم- أيُّها النَّاسُ- فجعَلَها أدلَّةً تستدِلُّونَ بها للنَّجاةِ، إذا ضَلَلْتم الطريقَ في ظُلُماتِ اللَّيلِ، سواءٌ كنتم في برٍّ أو بحرٍ .كما قال تعالى :وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي: قد ميَّزنا كلَّ جنسٍ ونوعٍ من الأدلَّة عن الآخَرِ، وبيَّنَّاها ووضَّحْناها، وجعَلْناها علاماتٍ على قُدْرَتِنا وكَمالِنا، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يَعْبُدَ غَيْرَنا؛ وذلك ليتدبَّرَها ويَفْهَمَها أولو العِلْمِ بالله تعالى، الذين يعرفونَ الحَقَّ، ويجتنبونَ الباطِلَ .

* النَّظَرُ في هذا الكونِ الجميلِ البهيجِ الرَّائِعِ، والتفكُّرُ في ظواهِرِه، وتقلُّباتِه من العَدَمِ إلى الوجودِ؛ يُوقِفُنا على قُدرةِ الله تعالى التي تَبْهَر العقولَ، ويُعَرِّفنا على بديعِ السَّمواتِ والأرض، الذي أودَعَ الوجودَ كلَّ هذه البدائعِ ليس كُلُّ أحدٍ يعتَبِرُ ويتفكَّر، وليس كلُّ من تَفكَّرَ، أدرَكَ المعنى المقصودَ؛ ولهذا قَيَّدَ تعالى الانتفاعَ بالآياتِ بالمؤمنينَ دونَ غيرِهم؛ فقال :إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فإنَّ المؤمنينَ يَحْمِلُهم ما معهم من الإيمانِ على العَمَل بمقتضياتِهِ ولوازِمِه، التي منها التفكُّرُ في آياتِ الله، والاستنتاجُ منها ما يُرادُ منها، وما تدلُّ عليه، عقلًا وفطرةً، ونقلًا ولكِنَّ النَّظَرَ والاعتبارَ في دَلالةِ الزَّرْعِ على قُدْرةِ الخالِقِ على الإحياءِ بعدَ الموتِ، كما قَدَرَ على إماتَةِ الحَيِّ؛ لَمَّا كان نظَرًا دقيقًا قد انصرف عنه المُشْركونَ، فاجتَرَؤوا على إنكارِ البَعْثِ– كان حالُهم كحالِ مَن أنكَرَ أو شَكَّ في أَنَّ اللهَ فالِقُ تعالى الحَبِّ والنَّوَى، – في قوله تعالى :وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا جَعَلَ الله حركاتِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على نظامٍ واحدٍ لا يختَلِفُ، وذلك من أعظَمِ دلائِلِ عِلْمِ الله وقُدْرَتِه .

قولُ الله تعالى :وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا أصلٌ في الحسابِ والميقاتِ وأدِلَّةِ القِبلةِ .

قولُه تعالى :وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فيه دليلٌ على مشروعيَّةِ تعلُّمِ سَيرِ الكواكِبِ ومَحالِّها؛ الذي يُسمَّى علْمَ التَّسييرِ؛ فإنه لا تَتِمُّ الهدايةُ ولا تُمْكِن إلَّا بذلك .

رؤية الله تعالى

{ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)} [الأنعام]

{ذَلِكُمُ}: اسم إشارة؛ يفيد الجمع؛ لأنه سبقها قوله خالق كل شيء{اللَّهُ رَبُّكُمْ}: جمع للألوهية، وللربوبية معاً. {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: أيْ: لا إله إلا هو؛ حصراً، وقصراً، لا معبود إلّا إياه.

{خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ}: الشيء: كل ما يعلم ويخبر عنه سواء أكان حسياً أم معنوياً، ويعني أقل القليل، وشيء نكرة؛ تشمل كل شيء، مهما كان نوعه، وشكله، وحجمه.

{وَكِيلٌ}: أيْ: هو الوكيل على كل شيء؛ أي: الكافي المتولي، والقائم، والمدبر لكل شيء، والمعين عليه، سواء اختار المخلوق، أم لم يختر.

الله {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}: أي: الله وكيل عليك، وليس وكيلاً لك؛ لأن الوكيل لك: ينفذ أوامرك، وقيل: فلان وكيل لفلان. أي: ينفذ ما يريده، أما الحق -جل جلاله- ؛ فإنه وكيل على كل شيء؛ أيْ: أعلم بما يناسب كل إنسان، فيستجيب له، أو لا يستجيب له حسب ما تقتضيه إرادته -جل وعلا- ، ومشيئته وحكمته تعالى. وفي هذه الآية: نجده قدَّم {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} على {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}. بينما في سورة غافر، آية (٦٢) قدَّم {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} على {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، وذلك لأن آية الأنعام جاءت في سياق التوحيد، ونفي الشرك، والصاحبة، والولد، فقدَّم كلمة التوحيد لا إله إلا هو، بينما في آية سورة غافر؛ فقد جاءت في سياق الخلق، وتعداد النِّعم؛ كقوله -سبحانه وتعالى- : {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ} [غافر: ٦٢]، ولذلك قدَّم خالق على لا إله إلا هو.

مناسبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الحجَّةَ على وجودِ الإلَهِ القادِرِ المُختارِ الحَكيمِ الرَّحيم، وبيَّنَ فسادَ قَوْلِ مَن ذَهَبَ إلى الإشراكِ بالله، وفصَّلَ مذاهِبَهم على أحسَنِ الوُجوهِ، وبيَّنَ فسادَ كُلِّ واحدٍ منها بالدَّلائلِ اللَّائقة به. ثم حَكَى مذهَبَ مَن أثْبَتَ لله البنينَ والبناتِ، وبَيَّنَ بالدَّلائلِ القاطعة فسادَ القولِ بها- فعند هذا ثَبَتَ أنَّ إلَهَ العالَمِ فَرْدٌ واحِدٌ صَمَدٌ؛ مُنَزَّهٌ عن الشَّريكِ والنَّظيرِ، والضِّدِّ والنِّدِّ، ومُنَزَّهٌ عن الأولادِ والبنينَ والبناتِ، فعند هذا صَرَّحَ بالنتيجةِ؛ فقال : ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ. أي: ذلك- الذي لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ- هو المألوهُ المعبودُ الذي يستحِقُّ نهايةَ الذُّلِّ ونهايةَ الحُبِّ، الرَّبُّ الذي ربَّى جميعَ خَلْقِه بنِعَمِه، فلا ينبغي أن تكون عبادَتُكم وعبادَةُ جميعِ الخَلْقِ إلَّا خالصةً له وحْدَه؛ فحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ جميعَ أنواعِ العبادَةِ لصانِعِه، ويَقْصِدَ بها وَجْهَه، فاعبدوه وحْدَه لا شريكَ له، وأَقِرُّوا له بالوحدانيَّة، فلا وَلَدَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ له، ولا نَظيرَ ولا شريكَ .

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أي: واللهُ على جميعِ ما خَلَقَ رَقيبٌ وحَفيظٌ؛ فيقومُ بأرزاقِهم وأقواتِهم، وسياسَتِهم وتدبيرِ شئونِهم؛ بكمالِ عِلْمِه، وقُدْرَته ورَحْمَتِه، وعَدْلِه وحِكْمَتِه عزَّ وجلَّ، وكلُّ شيءٍ بيَدِه، وأمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وحده، فيفعَلُ فيها ما يشاءُ سبحانه، فذلك- الذي هذه صفاتُه- هو الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَد وَحْدَه لا شريكَ له .

قال تعالى {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}

{لَا}: النافية. {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}: أيْ: لا تحيط به الأبصار أيَّ إحاطة؛ لأن -جل وعلا- إذا أحاطت به الأبصار؛ صار مقدوراً عليه.

وهناك فرق بين الرؤية والإدراك؛ الإدراك: أقوى من الرؤية؛ فقد ترى شيئاً ما، ولكن لا تدركه؛ أيْ: تحيط به علماً، ورؤيةً كاملة.

{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}: سواء أكانت العيون، أم العقول، لن يدركه عقل، أو بصر أبداً، لا في الدنيا، ولا في الآخرة. أما رؤية الله في الآخرة: فهي حق، ولكن ليست رؤية إدراك، بل رؤية عن بعد، والله أعلم كيف تكون. {وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}: يدرك سبحانه أبصار خلقه، وعقولهم؛ لأنه -جل وعلا- يحيط بخلقه إحاطة تامة. {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}: اللطيف: يعلم بمخفيات الأمور، ودقائق الأشياء، والوصول إليها بدقة ولطف. واللطيف: من لطف، والشيء حين يدق ويصغر؛ يقال له: لطف؛ أيْ: كلما دقّ؛ أيْ: لطف، فهو يعلم كل شيء؛ مهما دق وصغر في الحجم، أو الاختفاء، واللطيف تعني كذلك: حسن المعشر، يرفق بعباده.

{الْخَبِيرُ}: العليم ببواطن الأمور، وذات الصدور، وكل الجوانب.

وأما الرؤية التي أخبر الله -جل جلاله- عنها عباده، فقال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} رؤية لا يعلم حقيقتها إلا الله وحده . أي: لا تُحيطُ به الأبصارُ، وإنْ كانتْ تراه في الجُملةِ، أمَّا هو سبحانه فقد أحاط عِلْمُه، وسَمْعُه، وبَصَرُه بكُلِّ شيءٍ؛ فيعلَمُ ويرى كلَّ شيءٍ على حقيقَتِه التي هو عليها .

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.وهو اللَّطيفُ الذي يُوصِلُ النَّفْعَ والبِرَّ والإحسانَ لخَلْقِه بالطُّرُق الخَفِيَّة، من حيثُ لا يشعرونَ، وهو الخبيرُ الذي دَقَّ عِلْمُه؛ فأدرَكَ به الخفايا والبواطِنَ العابدُ ينبغي أن يتفرَّغَ لعبادَةِ الله تعالى، ويقطَعَ أمورَه عن غيرِ وكالَتِه سبحانه؛ فإنَّه يكفيهِ بفَضْلِه عمَّن سواه؛ يُرشِدُ إلى ذلك قولُه تعالى :فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

فائدةُ ذِكرِ قَوْلِه :خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعبدُوهُ فيها بعدَ قولِه :وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ جعلُه توطئةً لقولِه تعالى :فَاعْبُدُوهُ وأمَّا قولُه :وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فإنما ذُكِرَ استدلالًا على نَفْيِ الوَلَدِ، قال تعالى :وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ في ذِكْرِ العِلْم بعد الخَلْقِ إشارةٌ إلى الدَّليلِ العقليِّ إلى ثبوتِ عِلْمِه، وهو هذه المخلوقاتُ، وما اشتمَلَتْ عليه من النِّظامِ التامِّ، والخَلْقِ الباهِرِ؛ فإنَّ في ذلك دلالةً على سَعَةِ عِلْمِ الخالِقِ، وكمالِ حِكْمَتِه؛ كما قال تعالى :أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

قوله تعالى :لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ قد يستشْكِلُ مُستَشْكِلٌ، فيقولُ: إنَّ الإلهَ هو الذي يَستحِقُّ أن يكون معبودًا، فقوله :لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ معناه: لا يَستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو، فلِمَ قال بعدَ ذلك فَاعْبُدُوهُ؛ فإنَّ هذا يُوهِمُ التَّكريرَ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه :فَاعْبُدُوهُ مُسبَّبٌ عن مَضْمونِ جُملةِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، على معنى: أنَّ مَنْ استجمَعَتْ له هذه الصِّفاتُ كان هو الحَقيقَ بالعبادَةِ؛ فاعبدُوه ولا تَعبُدوا مِن دونِه بَعْض خَلْقِه .

استُدِلَّ بقوله :خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ على أنَّه تعالى هو الخالِقُ لأعمالِ العبادِ؛ فأعمالُ العبادِ أشياءُ، واللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ بحكم هذه الآيَةِ؛ فوجب كونُه تعالى خالقًا لها .

قولُ الله تعالى :لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ يدلُّ على جوازِ الرؤيةِ؛ لأنَّ نَفْيَ الإدراكِ الذي هو الإحاطةُ يدلُّ على أنَّه إذا رُئِيَ لا تُدْرِكُه الأبصارُ، وهو يَقتضي إمكانَ رُؤيتِه، فنفيُ إدراكِ الأبصارِ إيَّاه ليس نفيًا لرؤيَتِه؛ فهو دليلٌ على إثباتِ الرؤيَةِ، ونفيِ إحاطَةِ الأبصارِ به، فالآيةُ تدلُّ على جوازِ الرؤيَةِ أدلَّ منها على امتناعِها؛ لأنَّ اللهَ سبحانه إنَّما ذَكَرَها في سياقِ التمدُّحِ، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصافِ الثبوتيَّة، وأمَّا العَدَمُ المحضُ فليس بكمالٍ، ولا يُمدَحُ

قوله :لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فيه تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ؛ فكَوْنُها مُدرَكَةٌ بالأبصارِ من سِماتِ الُمحْدثاتِ، لا يليقُ بالإلهيَّة .

ولَمَّا كان قولُه تعالى :لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ ذُكِر للتخويفِ، ناسب حينئذٍ أن يشفعَ ببيانِ رأفتِه ورحمتِه، جريًا على سننِ الترغيبِ والترهيبِ، فقال :وَهُوَ اللَّطِيفُ ، وعَطَفَ عليه قولَه :الْخَبِيرُ مُخصِّصًا لِذاتِه سُبحانه بصِفَةِ الكَمالِ؛ لأنَّه ليس كلُّ مَن أدرَكَ شيئًا كان خَبيرًا بذلك الشَّيءِ؛ لأنَّ الُمدرِكَ للشَّيءِ قد يُدْرِكُه لِيَخْبُرَه، ولَمَّا كان الأمرُ كذلك أخبَرَ سبحانه وتعالى أنَّه يُدرِكُ كلَّ شَيءٍ مع الخِبْرَةِ به

وقوله :وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير تذييلٌ للاحْتراسِ دفعًا لتوهُّمِ أنَّ من لا تُدرِكُه الأبصار لا يعلم أحوالَ من لا يُدركونَه .

{قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}:

{جَاءَكُم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}: بصائر: جمع بصيرة، والبصائر: البينات، تشمل آيات القرآن، والأصح: الحجج، والمعجزات، والبراهين التي تهدي إلى الحق. وقيل: البصيرة: هي النور الذي يبصر به القلب، كما أن البصر هو النور الذي تبصر فيه العين، وهي البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً.

{فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ}: أيْ: نفع نفسه من اهتدى بهذه البصائر؛ أي: الآيات، فلنفسه أفاد نفسه.

{وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا}: ضرّ نفسه؛ أيْ: من أعرض عن الحق، وضلَّ؛ فإنما يضل على نفسه؛ أيْ: عاقبة ضلاله، ووبال أمره يعود عليه وحده. كقوله: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ

فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الإسراء: ١٥]؛ لأن الله سبحانه غني عن خلقه، وعن طاعتهم.

{وَمَا أَنَا}: أنا: تعود على رسول الله -ﷺ-. {بِحَفِيظٍ}: حفيظ؛ أحصي لكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، أو رقيب عليكم، أو قادر على أن أحرسكم، أو أحفظكم من المهالك، ومكائد الشيطان، ومصارع السوء، أو أحميكم من الوقوع في الذنوب.

النهي عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم

{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)} [الأنعام]

{وَلَا تَسُبُّوا}: أيْ: ولا تسبوا، لا: الناهية، لا تسبوا الذين يعبدون، أو يدعون من دون الله، أو تسبوا آلهتهم؛ فيكون ذلك سبباً لهم لسب الله سبحانه، والسب: يشمل الكلام القبيح، أو الشتم، والذم، والهجاء، والعيب. {عَدْوًا}: أيْ: ظلماً، ظلماً بجهل، أو تسرعاً، والعَدْو: الاعتداء، والتجاوز، وعدا؛ أيْ: ظلم. {بِغَيْرِ عِلْمٍ}: جهلاً منهم؛ بما لله سبحانه: من حق، وتقديس، وقدر.

وفي هذه الآية: يتبيَّن الأدب القرآني في عدم السب؛ لأنه قد يكون سبباً في بُعدهم عن الإسلام أكثر فأكثر، ويكون وراء ذلك مفسدة، وهذا يعلمنا اللطف في منهج الدعوة؛ لأن الوسيلة هي أن تستميل القلوب للإسلام.

{كَذَلِكَ}: أيْ: كما زينا لهؤلاء القوم، حب آلهتهم، والانتصار لها، والدفاع عنها، وعدم الرضا بسبِّها. {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ}: من الأمم عملهم: من خير أو شر، أو الإيمان والكفر، أو التوحيد والشرك، والمزين هنا هو الشيطان، أو الله سبحانه. انظر إلى الملحق.

وتعريف الأمة: جماعة من الناس، تجمعهم عقيدة واحدة، أو دِين واحد، أو مبادئ وأسس اجتماعية غير ربانية.

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ حصراً إلى الله مرجعهم فينبئهم بإخراج صحائف أعمالهم التي تشمل الأقوال والأفعال.

والسؤال في هذه الآية؛ من هو المزيِّن؟

التزيين يأتي من الله سبحانه، أو من الشيطان، أو أحياناً يكون فعل التزيين مبنياً للمجهول، فالله -جل وعلا- : هو المزين للأعمال الحسنة، أعمال البر، والتقوى، والخير، والإحسان التي تزيد في هداية المؤمن، وتقواه، وأما الشيطان وأتباعه: فهو المزين لأعمال السوء، أعمال الشرك، أو الضلال، والغواية، والمعصية، والعدوان، والشر، والظلم .

في زاد المسير في علم التفسير:

قوله تعالى: وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ في سبب نزولها قولان:

أحدهما: أنه لما قال للمشركين: إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ حَصَبُ جَهَنَّمَ قالوا: لتنتهينَّ يا محمد عن سبِّ آلهتنا وعيبها، أو لنهجونَّ إلهك الذي تعبده، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس

والثاني: أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة لا علم لهم بالله، قاله قتادة.

ومعنى «يدعون» : يعبدون، وهي الأصنام. فَيَسُبُّوا اللهَّ أي: فيسبوا من أمركم بعيبها، فيعود ذلك إلى الله تعالى، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى، لأنهم كانوا يقرون أنه خالقهم، وإن أشركوا به. وقوله تعالى: عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ، أي: ظلماً بالجهل. والعرب تقول في الظلم: عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعُدواناً. وعدا، أي: ظلم.

قوله تعالى: كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر.

جاء في تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه - الدرة :

وقيل: لما نزلت هذه الآية؛ قال النبي ﷺ : «لا تسبوا آلهتهم؛ فيسبوا ربكم». فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم. فظاهر الآية وإن كان نهيا عن سب الأصنام، فحقيقتها النهي عن سب الله تعالى؛ لأنه سبب لذلك. انتهى خازن.

ومن هذا القبيل ما يفعله كثير من الناس من سب آباء غيرهم، فيردون لهم الكيل كيلين، والصاع صاعين، أي: فيسبون آباءهم، وأمهاتهم، وأجدادهم. ففي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ "

في التفسير المنير – الزحيلي:

ينهى الله تعالى رسوله والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو {اللهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ} كما قال ابن عباس.

لا تسبوا أيها المسلمون آلهة المشركين التي يدعونها من دون الله؛ إذ ربما نشأ عن ذلك سبّهم لله ﷻ عدوانا، أي ظلما وتجاوزا منهم للحدّ في السباب والمشاتمة، لإغاظة المؤمنين، جهلا منهم بقدر الله تعالى وعظمته. وهذا يدل على أن الطاعة أو المصلحة إن أدت إلى معصية أو مفسدة تترك، وقد أمر الله موسى وهارون باللطف في مخاطبة فرعون: {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى} وكما زينا لهؤلاء القوم حب الأصنام والانتصار لها، زينا لكل أمة من الأمم سوء عملهم من الكفر والضلال، أي أن هذه سنة الله في خلقه، يستحسنون عاداتهم وتقاليدهم التي ساروا عليهم عن تقليد وجهل، أو عن معرفة وعناد، والله يتركهم وشأنهم.

وهذا التزيين أثر لاختيارهم دون جبر أو إكراه، لا أن الله خلق في قلوبهم تزيينا للكفر والشر، كما زين في قلوب آخرين الإيمان والخير، وإلا كان الإيمان والكفر والخير والشر غريزة، تعد الدعوة إلى الإصلاح بعدها نوعا من العبث، والله منزه عنه، وكان الثواب والعقاب وإرسال الرسل وإنزال الكتب لا معنى له ولا عدل فيه.

وبعد تركهم وشأنهم في الدنيا يكون معادهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث إلى ربهم ومالك أمرهم، لا إلى غيره، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وهذا إنذار وتهديد . المؤمنون منهيون عن مجاراة الكفار ومبادلتهم السباب والشتم والقبائح، سدا لذرائع

الفساد، ومنعا من الوقوع في المفسدة، وإن كانت هناك مصلحة مرتجاة، وقصد ثواب، فذلك مرجوح وقليل أمام الجرم الأعظم وهو سب الله، والمفسدة الأغلب. وفي هذا تهذيب أخلاقي، وسمو إيماني، وترفع عن مجاراة السفهاء الذين يجهلون الحقائق، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه.

وحكم الآية-كما ذكر العلماء-باق في الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين، وخيف أن يسبّ الإسلام أو النّبي ﷺ أو الله ﷻ، فلا يحل لمسلم أن يسبّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه فعل بمنزلة التحريض على المعصية.

وهذا نوع من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسدّ الذرائع، وفي الآية دليل أيضا على أن المحقّ قد يكف عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون في الدّين. ومن هذا المعنى ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لا تبتوا الحكم بين ذوي القرابات مخافة القطيعة. قال ابن العربي: إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال، وإن كان جائزا ففيه يكون هذا القول

قول النّبي ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ.» قال ابن العربي: فمنع الله تعالى في كتابه أحدا أن يفعل فعلا جائزا يؤدي إلى محظور. وبهذا تمسك المالكية في سد الذرائع: وهو كل عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصّل به إلى محظور.

الصراط المستقيم

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)} [الأنعام]

{وَأَنَّ}: للتوكيد. {هَذَا}: الهاء: للتنبيه. ذا: اسم إشارة للقريب، يشير إلى كون الصراط المستقيم قريباً. {صِرَاطِي}: أيْ: دِين الإسلام. {مُسْتَقِيمًا}: لا اعوجاج فيه، والصراط المستقيم؛ يعني:

الطريق المعبد المستقيم الذي يوصلك إلى غايتك بأقرب مسافة، أو أقصر زمن، ومن دون مشقة، أو عوائق. ونسبه الله –عز وجل– إليه؛ فقال: {صِرَاطِى}: تشريفاً لهذا الدِّين؛ فهو دِين الله –جل جلاله– .

{فَاتَّبِعُوهُ}{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}: أي: الطرق الضالة المنحرفة، كما قال –ﷺ–: «وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة –ﷺ– . {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}: أيْ: فتضلكم عن دِينه. {ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}: تتقون: بامتثال أوامر الله تعالى، وتجنب نواهيه.

ثم ختم الله تعالى هذه الوصايا ببيان أن هذا هو منهج الحق وطريق الاستقامة، فقال: {وَأَنَّ هذا صِراطِي..}. أي ولأن هذا هو الطريق المستقيم، فاتبعوه ولا تتبعوا الطرق المختلفة ذات المذاهب والأهواء والبدع والضلالات، فيؤدي بكم إلى التفرق والاختلاف، والانحراف عن دين الله الحق، ومنهجه الأمثل. قال ابن عباس في قوله: {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلكم بالمراء والخصومات في دين الله. وأوضح النّبي ﷺ الصراط المستقيم، روى الإمام أحمد، والنسائي وأبو الشيخ ابن حيان والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطأ بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيما» وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}.

وروى أحمد والترمذي والنسائي عن النّواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلا: صراطا مستقيما، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، هلّم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد إنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلجه. فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب

المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»

وأما آية {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً} فأرشدت إلى أن كل ما بيّنه الرسول ﷺ من دين الإسلام هو المنهج القويم، والصراط المستقيم. وأرشدت أيضا إلى وجوب الاتحاد بين المؤمنين والتلاقي بينهم على ما أمر الله به، والتحذير من الاختلاف والفرقة، واتباع غير سبيل الله، وأن الله أهلك الأمم السابقة بالمراء والخصومات، ودلت الآية أيضا على أن كل ما كان حقا فهو واحد.

التزين للصلاة وترك الإسراف في الأكل والشرب

قال تعالى {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)} [الأعراف]

أسباب النزول: كما روى مسلم وغيره: « كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً، إِلَّا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ»

الحمس؛ أيْ: قريش وأحلافها، فمن جاء يحج وضع ثيابه، واستعار ثياب من أهل مكة كي يطوف بها، فإن لم يجد ثياباً طاف عرياناً، وكانوا في أيام الحج يحرمون على أنفسهم الطيبات، واللحوم؛ تقرباً من الله؛ فنزلت هذه الآية تأمرهم بستر عوراتهم، ولبس الثياب الطاهرة، وأكل الطيبات، واللحوم، وعدم الإسراف.

{خُذُوا زِينَتَكُمْ}: الزينة: لفظ عام يشمل الزينة الخارجية والثياب والريش؛ أي: استروا عوراتكم، والبسوا الثياب الحسنة الطاهرة حين الطواف بالبيت والصلاة.

{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}: أيْ: كلوا الطيبات، والحلال، واللحم، والشحم، وما تيسر على شرط عدم الإسراف، والإسراف: هو تجاوز الحد في كل شيء في المال، والطعام، واللباس، والإنفاق.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}: جمع مسرف، والإسراف: مجاوزة الحد، أو تعدي الحد الذي أباحه الله في الإنفاق، وما وراء الحاجة، أما التبذير؛ فهو الإنفاق في الأمور المحرمة غير المباحة، أو الحرام

في التفسير المنير – الزحيلي :

{عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} المراد بالمسجد هنا الطواف والصلاة، فهو مجاز مرسل علاقته المحلية؛ لأنه لما كان المسجد مكان الصلاة أطلق الطواف والصلاة عليه، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال

قال ابن عباس: إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب .

يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل عبادة من صلاة أو طواف، والبسوا ثيابكم حينئذ، والمراد بالزينة: الثياب الحسنة، وأقلها ما به تستر العورة. فستر العورة واجب في الصلاة والطواف، وما بعد العورة يسن ستره ولا يجب. وعورة الرجل ما بين السرة والركبة، وعورة المرأة جميع بدنها ما عدا الوجه والكفين .

واللباس مظهر حضاري رفيع، والأمر بارتداء الثياب وستر العورة من محاسن الإسلام، والإسلام هو الذي نقل القبائل العربية وغيرها من الأفارقة من البدائية والتخلف والتوحش إلى المدينة والحضارة.

ويؤيد مدلول الآية في إيجاب الستر ما أخرجه الطبراني والبيهقي عَنْ ابن عمر عَنْ رَسُولِ الله ﷺ – قَالَ: " إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَلْبَسْ ثَوْبَيْهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَقُّ أَنْ يُزَيَّنَ لَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيَأْتَزِرْ إِذَا صَلَّى وَلَا يَشْتَمِلْ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ اشْتِمَالَ الْيَهُودِ "

وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري مسند الشافعي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَى عَاتِقَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ»

ثم أباح الله الأكل والشرب من غير إسراف فقال: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا }. أي كلوا واشربوا من الطيبات المستلذات، ولا تسرفوا فيها، بل عليكم بالاعتدال من غير تقتير ولا إسراف، ولا بخل

ولا زيادة إنفاق، ولا تجاوز الحلال إلى الحرام في المأكل والمشرب، إن الله لا يحب المسرفين، في الطعام والشراب، أي يعاقبهم على الإسراف الذي يؤدي إلى الضرر.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا، فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ.

وروى النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو أيضا بلفظ: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة».

وروى الإمام أحمد والنسائي والترمذي عن المقدام بن معديكرب قال ﷺ : مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ طَعَامٌ وَثُلُثٌ شَرَابٌ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ.

قال بعض السلف: جمع الله الطبّ كله في نصف آية: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا، وَلا تُسْرِفُوا}.

* يذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا. فقال له: ما هي؟ قال: قوله عز وجل: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا} فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب. فقال علي: جمع رسول الله ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: ما هي؟ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» الحديث، فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.

وقال البخاري: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ . أي كبر وإعجاب بالنفس.

والإسراف: تجاوز الحد في كل شيء. والله تعالى يحب إحلال ما أحل، وتحريم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به، فلا يصح تجاوز الحد الطبيعي كالجوع والعطش والشّبع والرّي، ولا المادي بأن تكون النفقة بنسبة معينة من الدّخل لا تستأصله كله، ولا الشرعي فلا يجوز تناول ما حرم

الله من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله، والخمر، إلا للضرورة، ولا يحل الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة، ولا لبس الحرير الطبيعي أو تشبه الرجال بالنساء أو بالعكس. وبناء عليه يكون فعل كل من البخلاء والمترفين المسرفين حراما لا يسوغ شرعا.

مشهد لأهل النار

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)} [الأعراف]

{أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ}: أفيضوا: من أفاض الماء؛ أيْ: صبه، وتعني: أعطونا شيئاً من الماء الكثير؛ الذي أفاضه الله عليكم، أو {مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ}: أيْ: من الطعام الكثير، وذلك؛ لما يعانيه أهل النار: من الجوع، والعطش، وأنواع العذاب الأخرى، مثل: السعير، والزمهرير، وغيرها. {قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}: قالوا؛ أيْ: أصحاب الجنة لأصحاب النار. {حَرَّمَهُمَا}: أي: الطعام، والشراب على الكافرين

التفسير المنير – الزحيلي:

هذا مشهد من مشاهد سوء أهل النار يوم القيامة، فالله يخبر عن ذلة أهل النار وسؤالهم الطعام والشراب من أهل الجنة، وأنهم لا يجابون إلى ذلك.

ومعنى الآية: إن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام. وقوله: {أَفِيضُوا} معناه صبوا علينا من الماء أو النعم الشيء الكثير، ومعنى قوله: {أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ} أي من غيره، فيشمل الطعام والأشربة غير الماء. وقد استغاثوا بهم مع علمهم بأنهم لا يجابون أبدا، بسبب الحيرة في أمرهم، ولشدة حاجتهم إلى الماء، كما يفعل كل مضطر، كالغريق وغيره. وقوله: {أَفِيضُوا} فيه دليل على أن الجنة فوق النار

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس، فقالوا: يا ربنا، إن لنا قرابات من أهل الجنة، فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فأمر الله الجنة فتزحزحت، ثم نظر أهل جهنم إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر

أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، وقد اسودّت وجوههم وصاروا خلقا آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وقالوا: {أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ}. وإنما طلبوا الماء خاصة لشدة ما في بواطنهم من الاحتراق واللهيب، بسبب شدة حر جهنم.

وهذا القول يدل على أنهم طلبوا الماء مع جواز الحصول. وقال آخرون: بل مع اليأس؛ لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم .

ومعنى قوله تعالى: {قالُوا: إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ}: قال أهل الجنة: إن الله منع الكفار شراب الجنة وطعامها ، دلت الآية على أن شراب أهل الجنة وطعامهم ممنوع حرام على الكافرين. وهو تحريم قهر وعقاب ، ودلت الآية على إهمال الكافرين في عذاب جهنم ومعاملتهم معاملة المنسيين، لنسيانهم واجباتهم نحو ربهم في الحياة الدنيا، وعلل تعالى ذلك بتعليلات مجملها أنهم كانوا كافرين، وتفصيلها ووصف أحوالهم: أنهم اتخذوا دينهم لهوا أولا، ثم لعبا ثانيا، ثم غرتهم الحياة الدنيا ثالثا، ثم صار عاقبة هذه الأحوال أنهم جحدوا بآيات الله، وذلك يدل على أن حب الدنيا مبدأ كل آفة .

فضل صدقة الماء

وأما من الناحية الفقهية بالمعنى الخاص فقد دلت الآية الأولى على أن سقي الماء من أفضل الأعمال. وفي مسند أبي يعلى : قال أَبُو مُوسَى الصَّفَارُ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ أَوْ سُئِلَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ الْمَاءُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى أَهْلِ النَّارِ لَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا {أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ} [الأعراف: ٥٠]

وفي سنن أبي داود عَنْ سَعِيدٍ، أَنَّ سَعْدًا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «الْمَاءُ» وفي المستدرك على الصحيحين للحاكم عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَالْحَسَنِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، ﷺ ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْجَبُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «سَقْيُ الْمَاءِ» فدل على أن سقي الماء من أعظم القربات عند الله تعالى. وقد قال بعض التابعين: من كثرت ذنوبه فعليه بسقي الماء.

في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا »

وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب فيما رواه البخاري عن أبي هريرة، فكيف بمن سقى رجلا مؤمنا موحدا وأحياه؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ.»خ

وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ –فيما رواه ابن ماجه في السنن–عن النبي ﷺ : وَمَنْ سَقَى مُسْلِمًا شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ حَيْثُ يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً وَمَنْ سَقَى مُسْلِمًا شَرْبَةً مِنْ مَاءٍ حَيْثُ لَا يُوجَدُ الْمَاءُ فَكَأَنَّمَا أَحْيَاهَا» .

واستدل بهذه الآية من قال: إن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه، وأن له منعه ممن أراده؛ لأن معنى قول أهل الجنة: {إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} لا حق لكم فيها.

وروى البخاري قال أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ ، عَنِ النبي ﷺ قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوْضِي، كَمَا تُذَادُ الْغَرِيبَةُ من الإبل عن الحوض قال المهلّب: لا خلاف أن صاحب الحوض أحق بمائه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لأذودنّ رجالا عن حوضي»

الدعاء الخفي

{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)} [الأعراف]

{ادْعُوا رَبَّكُمْ}: سلوا ربكم حوائجكم. {تَضَرُّعًا}: بتذلل؛ أيْ: إظهار ذل النفس، وخضوعها له، والضراعة: هي الذلة. {وَخُفْيَةً}: بضم الخاء سراً، أو بالخفاء؛ لتجنب الرياء، وإذا قارنا هذه الآية مع الآية (٢٠٥) في نفس السورة وهي قوله تعالى: {تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} خِيفة: بكسر الخاء من

الخوف، نجد أن الآية (٥٥) تعني: ادعوا ربكم في الخفاء، والآية (٢٠٥) ادعوا ربكم بشيء من الخشية (الخوف والتعظيم والعلم)، وإذا نظرنا إلى الآية (٥٦) في نفس السورة فهي تحث أيضاً على دعائه {خَوْفًا وَطَمَعًا}.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}: أيْ: لا تعدوا في دعائكم؛ لأنه لا يحب المعتدين في الدعاء؛ أيْ: بالصياح، ورفع الصوت، أو الدعاء بأشياء مستحيلة؛ كأنه يدعوه أن يصبح نبياً، أو رسولاً، أو يخلد في الدنيا

{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}: الفساد في الأرض: بالقتل، والظلم، والتخريب، وإهلاك الحرث والنسل، وتكذيب الرسل، والمعاصي، والشرك، والكفر بعد إصلاحها.

{وَادْعُوهُ خَوْفًا}: خوفاً من صفات جبروته، وقهره، وغضبه وسخطه. {وَطَمَعًا}: الطمع: هو الرغبة الشديدة في توقع الخير في غفرانه، ورحمته، وفضله، وطمعاً في الاستجابة لدعائكم، وخوفاً من أن يردَّ دعاءَكم. {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}{رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ}: ولم يقل: قريبة بصيغة المؤنث، وإنما قريب بصيغة المذكر، ويجوز في اللغة تذكير أو تأنيث قريب إذا لم يكن القرب في سياق النسب عندها لا بد من القول قريبة، ولو قال: رحمة الله قريبة؛ لدل على ذلك على أن رحمته فقط هي القريبة من المحسنين. ولكن قال -جل جلاله- : {قَرِيبٌ}: تعود على ذات الله سبحانه؛ أيْ: إنه -جل وعلا- هو قريب بذاته، وبالتالي رحمته؛ التي هي جزء من ذاته، قريبة كذلك، وبذلك يكون المعنى: أن الله سبحانه بذاته المشتملة على الرحمة قريب من المحسنين، جمع بين قربَهُ وقُرب رحمته معاً، بدلاً من أن يقول: إن رحمة الله قريبة، والله قريب، جمع ذلك، وأوجز

التحذير من الاعتداء في الدعاء

إنَّ من الضوابطِ المهمَّةِ للدعاء أن يحذر المسلمُ أشدَّ الحَذر من الاعتداء فيه، والاعتداءُ هو تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، يقول الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} ، فأرشد تبارك وتعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ عبادَه إلى دعائه الذي هو صلاحُ دينهم ودنياهم

وآخرتهم، ثمَّ نهاهم سبحانه في هذا السياق عن الاعتداء بإخباره أنَّه لا يحبُّ المعتدين، فدلَّ ذلك على أنَّ الاعتداء مكروهٌ له مسخوطٌ عنده، لا يُحبُّ فاعلَه، ومن لا يحبُّه الله فأيُّ خيرٍ ينال، وأي فضلٍ يُؤمِل.

ثمَّ إنَّ النهيَ عن الاعتداء في الآية وإن كان عاماً يشملُ كلَّ نوع من الاعتداء، إلاّ أنَّه لمجيئِه عقِب الأمر بالدعاء يدلُّ دلالةً خاصة على المنع من الاعتداءِ في الدعاء والتحذير منه، وبيانِ أنَّ الدعاءَ المشتملَ على الاعتداء لا يحبُّه الله من عباده ولا يرضاه لهم؛ ولهذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} قال: " في الدعاء ولا في غيره " .

وعن قتادة في معنى الآية قال: " اعلموا أنَّ في بعض الدعاء اعتداء فاجتنبوا العدوان والاعتداء إن استطعتم ولا قوة إلاّ بالله ".

وعن الربيع في معنى الآية قال: " إيَّاك أن تسأل ربَّك أمراً قد نُهيتَ عنه أو ما ينبغي لك ".

وعن ابن جريج في معنى الآية قال: " إنَّ من الدعاء اعتداءً، يُكره رفع الصوت والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويؤمرُ بالتضرُّع والاستكانة " . وقد جاء عن النبي ﷺ ما يدلُّ على أنَّ من الأمَّة مَن سيقع في الاعتداء في الدعاء، وهو ﷺ عندما أخبر بذلك أخبر به محذِّراً منه ناهياً عنه مبيناً لخطره، وهذا من تَمام وكمال نصحه لأمَّته صلوات الله وسلامه عليه، وهو أيضاً من علامات نُبوَّته ﷺ روى الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وغيرُهم عن عبد الله بن مغفل: أنَّه سمع ابنه يقول: " اللَّهمَّ إنِّي أسألك القصرَ الأبيض عن يمين الجنَّة إذا دخلتها، فقال: أي بُنيَّ سلِ الله الجنَّة وتعوَّذ بالله من النار، فإنِّي سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: سيكون في هذه الأمة قومٌ يعتدون في الدعاء والطُهور " .

وروى الإمام أحمد، وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص أنَّه سمع ابناً له يدعو يقول: " اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة ونعيمَها وإستبرقها ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألتَ اللهَ خيراً كثيراً، وتعوَّذتَ بالله من شرٍّ كثير، وإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنَّه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

المُعْتَدِينَ} ، وإنَّ بحسبِك أن تقول: اللَّهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول أو عمل " .

فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أنَّه سيكون قومٌ من أمته يعتدون في الدعاء ناهياً عن ذلك، وليكون المسلمون في حَيطةٍ وحَذرٍ من الوقوع في شيء منه، ولا سبيل إلى السلامةِ من ذلك إلاّ بلزوم السنة واقتفاء آثار الرسول ﷺ كما قال عليه الصلاة والسلام: " فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين مِن بعدي تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ " .

إنَّ الاعتداءَ في الدعاء بابٌ واسعٌ، ومَهْيَعٌ فجٌّ؛ إذ هو : تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وعلى هذا فكلُّ مخالفةٍ للسنة ومفارقة للهدي النبوي الكريم في الدعاء يُعدُّ اعتداء، ومن المعلوم أنَّ المخالفات متنوِّعةٌ وكثيرةٌ لا يجمعها نوعٌ واحد، ثمَّ هي أيضاً متفاوتةٌ في خطورتها، فمِن الاعتداءِ ما قد يبلغ حدَّ الكفر، ومنه ما هو دون ذلك، فمَن اعتدى في دعائه بأن دعا غيرَ الله أو سأله أو طلب منه كشف ضرِّه أو جلب نفعه أو شفاءَ مرضه أو نحو ذلك، فقد وقع في أعظمِ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدِّها خطراً، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ الله مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} ، وحاصلُ كلام المفسرين في معنى هذه الآية أنَّ الله تعالى حكم بأنَّه لا أضلُّ ممَّن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له إلى يوم القيامة، ومعنى الاستفهام في الآية إنكارُ أن يكون في الضُّلاَّل كلِّهم أبلغُ ضلالاً ممَّن عبَد غيرَ الله ودعاه، حيث يترك دعاء السميعِ المجيبِ القدير، ويدعو مِن دونه الضعيفَ العاجزَ الذي لا قدرة له على الاستجابة، كما قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاّ فِي ضَلَالٍ} ، فهذا أخطرُ أنواع الاعتداء في الدعاء وأشدُّها ضرراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فهؤلاء أعظمُ المعتدين عدواناً، فإنَّ أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بدَّ أن يكون داخلاً في قوله تعالى:

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} " .

وأيُّ اعتداءٍ أعظم وأشدُّ من هذا، أن يَصرفَ العبدُ حقَّ الله الخالص الذي لا يجوز أن يُصرف لأحدٍ سواه إلى مخلوقٍ لا يَملكُ لنفسه ضرًّا ولا رَشداً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن أن يَملك شيئاً من ذلك لغيره، قال الله تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} ، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} ، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ الله لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ}.

وما من ريب أنَّ هذا هو أعظم العدوان وأشد الانحراف والطغيان، نسأل الله العافية والسلامة.

بخس الناس أشياءهم

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) } [الأعراف]

وأرسلنا {وَإِلَى مَدْيَنَ}: مدين: هو ابن من أبناء إبراهيم -عليه السلام- ، ومدين: اسم لقبيلته التي سُمِّيت على اسمه، ومدين: اسم للمدينة التي بناها وعاش فيها. وقيل: إن مدين هذا تزوج من رئيا ابنة سيدنا لوط -عليه السلام- ، وشكلوا قبيلة مدين، وتقع مدين في الجهة الشمالية الغربية من المملكة العربية السعودية في تبوك، وتقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وخليج العقبة يكون شمالها.

{أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}: أخاهم؛ لأنه من قومهم، وعاش بينهم، فأصبح كالأخ لهم. اختاره الله نبياً لهم. قيل: إن اسمه بالسريانية: يثرون، وهو أحد الأنبياء العرب الأربعة: وهم هود، وصالح، وشعيب، ومحمد -ﷺ-. {قَالَ يَا قَوْمِ}: نداء لطيف، استعمل فيه ياء النداء؛ التي تدل على البعد. {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}: أطيعوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وامتثلوا

أوامره، وتجنبوا نواهيه.

{قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَّبِّكُمْ}: معجزة، شاهدة، على صدق نبوَّتي.

والسؤال: ما هي هذه البيِّنة أو المعجزة؟ حتماً كانت هناك معجزة بيِّنة، ولم يذكرها الله سبحانه في القرآن، وقد تكون حالة السعة، والغنى التي كانوا فيها.

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ} أوفوا الكيل: أريد به آلة الكيل؛ أي: المكيال، أو سُمِّي ما يكال به بالكيل، {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ}وكان الإخلال في الكيل، والميزان هو الأمر الشائع فيهم، وكانوا يبخسون الكيل، والميزان حينما يبيعون، ويشترون.

{ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}: البخس: النقص، ويقال: بخسته حقه: إذا أنقصته حقّه؛ بالمخادعة، والاحتيال في البيع، والشراء، أو إخفاء العيب، والغش؛ أيْ: لا تنقصوهم حقهم بالتلاعب بالكيل والميزان.

{وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}: والواو عاطفة، لا الناهية. بالسرقة، والغصب، والرشوة، والاختلاس، وإهلاك الحرث والنسل، ومقومات الحياة، وارتكاب الفواحش {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ}: إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله وحده، والوفاء بالكيل، والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض، والعمل بما أمر الله، وتجنب ما نهى عليه.

قال: {ذَلِكُمْ}: ولم يقل: ذلك؛ لتعدد الأوامر، والنواهي، وللتأكيد والأهمية يستعمل: {ذَلِكُمْ}.

{إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ}: إن كنتم مصدقين قولي، ومؤمنين بما أرسلت به.

في التفسير المنير :

{وَإِلَى مَدْيَنَ} أي وأرسلنا إلى مدين، ومدين قبيلة عربية كانت تسكن أرض معان في شرقي الأردن، من طريق الحجاز، وهم من سلالة مدين بن إبراهيم، وكانوا يكفرون بالله، وعبدوا الملائكة من دونه، وكانوا يبخسون الناس في الكيل والوزن. وكما تطلق مدين على القبيلة، تطلق -كما ذكر ابن كثير- على المدينة المعروفة قرب معان .

{وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ} لا تنقصوهم حقهم. {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} شامل لإفساد

نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق، بارتكاب الفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام. {بَعْدَ إِصْلاحِها} إصلاح الأرض: هو إصلاح أهلها وما فيها بغرس العقيدة الصحيحة، والأعمال الصالحة، وإعمارها بما يرقي الحالة المعيشية ، وكانوا يعبدون غير الله تعالى، ويبخسون المكيال والميزان، فنهاهم شعيب عن كل ذلك، وحذرهم بأس الله، بما أوتي من قوة البيان والبراعة في إيراد الحجة عليهم، حتى إنه يسمى «خطيب الأنبياء» وهم أصحاب الأيكة في رأي ابن كثير .

وكانوا يقعدون على الطرق يصدون الناس عن دين الله ، وتلك التكاليف هي:

١ – الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة غير الله: {اُعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ}، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء، ودعوة الرسل كلهم.

٢ – ادعاؤه النبوة فقال: {قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به، والبينة تشمل المعجزة الكونية، والبرهان العقلي، وخوارق العادات

٣ – إيفاء الكيل والميزان، فقال: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ} وهذا مرتب على ما سبق: {قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} على تحريم الخيانة بالشيء القليل، والمعنى: أتموا الكيل والميزان إذا بعتم. وهذا وعظ لإحسان معاملتهم الناس، نابع من العدل الذي يجب أن تكون عليه المعاملة بين المبيع والثمن. وقد عني شعيب بعلاج هذه المفسدة أو الانحراف، لشغف أهل مدين بنقص المكيال والميزان ، وأراد بالكيل هنا: آلة الكيل وهو المكيال، كما قال في سورة هود: {أَوْفُوا الْمِكْيالَ}.

٤ – منع الخيانة للناس في أموالهم وأخذها دون حق، قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له: «خطيب الأنبياء» لفصاحة عبارته وجزالة موعظته: {وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ}، أي لا تنقصوهم شيئا في البيع خفية تدليسا، كما قال تعالى في تهديده ووعيده: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ} –إلى قوله– {لِرَبِّ الْعالَمِينَ} والبخس: النقص بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقص منه.

والمراد أنه لما منع قومه من بخس (أي نقص) في الكيل والوزن في البيع، منعهم بعد ذلك من

البخس والتنقيص بجميع الوجوه، ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وسلب الأموال بطرق الاحتيال، ونحو ذلك من المساومات، والغش ولو في غير البيع، ويشمل أيضا هضم الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، فلا يجوز لإنسان نقص آخر حقه في علم أو خلق أو فضيلة أو أدب، وادعاء التفوق عليه حسدا وبغيا وكراهية. روي عن قوم شعيب أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم، أخذوا دراهمه الجياد، وقالوا: هي زيوف، فيقطعونها قطعا، ثم يأخذونها منه بنقصان ظاهر، أو أعطوه بدلها زيوفا.

٥ - منع الإفساد، قال: {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها} أي لا تفسدوا في الأرض بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائهم، وهو على حذف مضاف أي بعد إصلاح أهلها.

والإصلاح عام يشمل العقيدة والسلوك والأخلاق ونظام المجتمع والحضارة والعمران وسائر وجوه التقدم الزراعي والصناعي والتجاري .

ويلاحظ أن قوله: {وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ} منع عن مفاسد الدنيا، وقوله: {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} منع من مفاسد الدين، حتى تكون الآية جامعة للنهي عن مفاسد الدنيا والدين.

{ذلِكُمْ} إشارة إلى هذه التكاليف الخمسة من عبادة الله، والتصديق بنبوتي، والوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس والإفساد في الأرض. والمعنى: كل ما ذكر خير لكم في الإنسانية وحسن السمعة وما تطلبونه من الربح المادي، لأن الناس أرغب في معاملتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والعدل. وخير لكم في الآخرة بالثواب والرضا الإلهي، إن كنتم مؤمنين بوحدانية الله وبرسوله وبشرعه وهداه وبالآخرة، فالإيمان يقتضي الامتثال والعمل بما جاء به الرسول من عند الله.

ويجوز أن يكون {ذلِكُمْ} إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن الله لا يأمر إلا بالنافع، ولا ينهى إلا عن الضارّ.

وفي هذا دلالة واضحة على أن العلم وحده لا يكفي للإصلاح، وإنما لا بد في إصلاح الأمم والشعوب من تربية دينية، تقنع الأجيال بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل، وبمضار

الانحراف والرذائل؛ لأن الوازع النفسي أقوى من أي ردع أو وازع خارجي.

ثم نهاهم شعيب عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: {وَلا تَقْعُدُوا..}. أي ولا تقعدوا في مفارق الطرقات تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم، أو تخوفون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه، قال ابن كثير: والأول أظهر، لأنه قال: {بِكُلِّ صِراطٍ} وهو الطريق. أما المعنى الثاني فهو مستفاد من قوله: {وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ}. أي تصرفون من يريد الإيمان عن دين الله، وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة، ففي هذه الآية نهاهم عن ثلاثة أمور: قطع الطريق على المارّة لأخذ الأموال، والصد عن دين الله، وطلب جعل سبيل الله المستقيمة معوجّة مائلة بالأكاذيب والضلالات وتشوية الحقائق والشبهات والشكوك الملقاة منكم.

والمراد من الآية أن شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين الحق بأحد هذه الطرق الثلاث.

ويلاحظ أن شعيبا ركّز في دعوته أولا على الإصلاح الداخلي بإيفاء المكيال والميزان وعدم الإفساد في البلد، ثم انتقل إلى الإصلاح الخارجي بإزالة الموانع والعقبات أمام نشر دعوته للذين يزورون أرضهم. وبعد قمع الفساد وتطهير البلد من المنكرات انتقل إلى النواحي الإيجابية الملازمة لهم وهي تذكر النعم، فقال: {وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ.}. أي وتذكروا كثرة إنعام الله عليكم، ليحملهم على الطاعة ويبعدهم عن المعصية، ومن تلك النعم أنكم كنتم مستضعفين قليلي العدد، فصرتم أعزة كثيري العدد بما بارك الله في نسلكم، واشكروا له نعمه بعبادته وحده.

روي أن مدين بن إبراهيم تزوج رئيا بنت لوط، فولدت أولادا كثيرين، حتى كثر عددهم، لأن الله بارك في نسلها. ويجوز أن يكون المعنى أنكم كنتم فقراء ضعفاء، فجعلكم موسرين أقوياء.

وتأملوا واعتبروا بمصير السابقين من الأمم الخالية والقرون الماضية والشعوب المجاورة لكم كقوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، كيف أهلكهم الله بفسادهم وبغيهم في الأرض، واجترائهم على معاصي الله، وتكذيب رسله، فتذكروا عاقبة فسادهم وما لحقهم من الخزي والنكال.

والمقصود من تذكر نعم الله، والتأمل في عقاب المفسدين، حملهم على الطاعة وترك المعصية بطريق الترغيب أولا، والترهيب ثانيا.

وإن كان طائفة منكم آمنوا بما أرسلت به، ولم تؤمن طائفة أخرى، أي قد اختلفتم علي فاصبروا أي فتربصوا وانتظروا حكم الله الذي يفصل بين الفريقين، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم. وهذا وعيد وتهديد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله تعالى: {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [التوبة ٥٢/ ٩] أو هو عظة للمؤمنين وتسلية لقلوبهم وحث على الصبر واحتمال ما يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم، وينتقم لهم منهم. والظاهر أنه خطاب للفريقين يراد منه حمل المؤمنين على الصبر على أذى الكفار، وزجر من لم يؤمن، حتى يحكم الله، فيميز الخبيث من الطيب.

{وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين؛ لأن حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الحيف أو الظلم.

ماذا يفعل الأنبياء؟ إنهم لا يملكون غير الدعوة إلى الله بالكلمة الحسنة، والإقناع والإتيان بالبراهين الكونية والعقلية، ثم النهي عن الفساد والإفساد، ثم التذكير بنعم الله تعالى على البشر، ثم حملهم على الطاعة والانقياد لأوامر الله بدعوتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بتدمير الأمم والشعوب المفسدة، وانتظار الحكم الفاصل النهائي لله رب العالمين، وحكمه حق وعدل لا جور فيه.

هذا ما فعله شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء مع أقوامهم، دعاهم إلى أصلين: تعظيم أمر الله ويشمل الإقرار بالتوحيد وتصديق النبوة، والشفقة على خلق الله ويشمل ترك البخس وترك الإفساد وكل أنواع الإيذاء، وتلك هي التكاليف الخمسة.

صفات النبي ﷺ

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)} [الأعراف]

الْأُمِّيَّ :أي: الذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِن كتابٍ، قيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّةِ الَّذينَ لم يَكتُبوا؛ لِكَوْنِه على عادتِهم؛ مثل عامِّيٍّ؛ لكونِه على عادةِ العامَّةِ، وقيل: سُمِّيَ بذلك لِنِسْبَتِه إلى أمِّ القُرَى، وقيل: نسبةً إلى الأُمِّ، والمعنَى أنَّه باقٍ على حالتِه التي وُلِد عليها لا يكتبُ ولا يقرأُ المكتوبَ، وأَصْلُ (أمم): الأَصْلُ والمَرجِعُ .

الطَّيِّبَاتِ :الحلال، أو ما اسْتَطابَتْه العرَبُ ممَّا لم يُحَرَّمْ، وأصْلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تَستلِذُّه النَّفسُ، وأَصْلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ الخَبيثِ .

الْخَبَائِثَ :أي: الحرام، أو: ما لا يُوافِقُ النَّفسَ من المحظوراتِ، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكْرَهُ رَداءَةً وخَساسَةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصْلُه الرَّديءُ الجارِي مَجْرى خَبَثِ الحديدِ، وكذلك يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الطَّيِّبِ .

إِصْرَهُمْ :أَي: مَا عُقِدَ مِن عَقْدٍ ثقيلٍ عليهم؛ مِثلُ: قتْلِ أنفُسِهم وما أشْبَهَ ذلك، وأصلُ (أصر): يدُلُّ على العَهْدِ، أو عَقْدِ الشَّيءِ، وحَبْسِه بقَهْرٍ .

وَالْأَغْلَالَ :أي: والشَّدائِدَ، أو الفرائِضَ المانِعَةَ لهم مِنْ أشياءَ رُخِّصَ فيها لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والغُلُّ مُخْتَصٌّ بما يُقيَّدُ به فَيُجْعَلُ الأعضاءُ وَسَطَه، وغُلَّ فلانٌ: قُيِّدَ به، وأَصْلُ (غلل): يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وثَباتِ شيءٍ .

وَعَزَّرُوهُ :أي: وعَظَّموه ونصَروه، أو أعانوه، والتَّعزيرُ: التَّعظيمُ، أو النُّصرةُ مع التَّعظيمِ

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ مِن صِفةِ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمةُ في الدُّنيا والآخرةِ: التَّقْوى، وإيتاءَ الزَّكاةِ، والإيمانَ بالآياتِ؛ ضَمَّ إلى ذلك أنْ يكونَ مِن صِفتِه اتِّباعُ النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يَجِدونه مكتوبًا

عِندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ .

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ أي: الَّذينَ كتبْتُ لهم رحمتي هُمُ الَّذينَ يتَّبِعونَ مُحَمَّدًا الرَّسولَ النَّبيَّ ، الَّذي لا يَقرأُ مِن كتابٍ ولا يَكتُبُ كما قال تعالى :وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ _وقال سُبحانَه :وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ أي: يَجِدونَ مُحَمَّدًا ﷺ مَذكورًا بصِفاتِه الواضحةِ في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وفي الإنجيلِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على عِيسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ . كما قال تعالى :الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

وعن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقيتُ عبدَ الله بنَ عمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، قلْتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوراةِ، قال: أَجَلْ، واللهِ إنَّه لموصوفٌ في التَّوراةِ ببعضِ صِفتِه في القرآنِ :يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ـ، وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ ، أنتَ عَبْدي ورسولي، سمَّيْتُك المُتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يدْفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكنْ يَعْفو ويَغفِرُ، ولنْ يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أَعْيُنًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا

وقد أخبَرَ اللهُ في القرآنِ بأنَّ عيسى عليه السَّلامُ بَشَّرَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، فقال :وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ

يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أي: يأمُرُهم الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ بالمعروفِ، وهو كلُّ خيرٍ أمَرَ به الشَّرعُ من الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، ويَنْهاهم عن المنكَرِ، وهو كلُّ شرٍّ أنكرَه الشَّرعُ من الشِّركِ والمعاصِي

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ أي: ويُحِلُّ لهم مُحَمَّدٌ ﷺ الأطعِمةَ والأشرِبةَ النَّافعةَ، الَّتي تَستطيبُها الأذْواقُ السَّليمةُ ممَّا حُرِّمَ على اليهودِ مِنْ قَبْلُ في التَّوراةِ، أو حرَّمَه العربُ على أنفُسِهم في جاهليَّتِهم .

كما قال تعالى :يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ـ وقال اللهُ سُبحانَه :قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ

وقال عزَّ وجلَّ :فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ـ وقال جلَّ جلالُه :مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ أي: ويُحرِّمُ عليهم مُحَمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الأطعِمةَ والأشرِبةَ، والأفعالَ الضَّارَّةَ، الَّتي تَستخبِثُها النُّفوسُ السَّليمةُ ممَّا يَستحِلُّه بعضُ النَّاسِ؛ كلَحْمِ الخِنزيرِ، والمَيتةِ، والدَّمِ، والخمرِ، والزِّنا، والرِّبا، والرِّشوةِ، وأكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ . كما قال تعالى :حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ... الآية

وقال سُبحانَه :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ـ وقال عزَّ وجلَّ :وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ أي: ويُبطِلُ مُحَمَّدٌ ﷺ ، ويُزيلُ عن الَّذين يتَّبِعونَه من أهلِ الكتابِ العَهْدَ الثَّقيلَ، الَّذي أخَذَه اللهُ عليهم؛ مِن العَمَلِ بما في التَّوراةِ من الواجباتِ الثَّقيلةِ، والمُحرَّماتِ الشَّديدةِ، الَّتي كانتْ كالقُيودِ على أعناقِهم . كما قال تعالى :وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وقال سُبحانَه :يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وقال عزَّ وجلَّ :لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال : لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ :وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ قال: دخَلَ قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخُلْ قلوبَهم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ : قولوا: سمِعْنا وأطعْنا وسلَّمْنا، قال: فألْقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهم، فأنزَلَ اللهُ تعالى :لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا قال: قدْ فَعَلْتُ .رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا قال: قدْ فَعَلْتُ .وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا قال: قدْ فَعَلْتُ

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال :إنَّ اللهَ تجاوَزَ عن أُمَّتي ما حدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تعمَلْ أو تتكلَّمْ

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ أي: فالَّذينَ صدَّقوا وأقرُّوا بأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وعظَّموه، وأَعانوه على أعدائِه، الَّذينَ ظَلَموه وكذَّبوه .

وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أي: واتَّبَعوا القرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ على مُحَمَّدٍ ﷺ مع نُبوَّتِه .

كما قال تعالى :قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وقال سُبحانَه :يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وقال جلَّ جلالُه :وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وقال ﷻ: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا

أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أي: فالَّذينَ آمَنوا بالرَّسولِ وعظَّموه ونصَروه واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنْزِلَ معه هُمْ وَحْدَهم الفائِزونَ، الظَّافِرونَ بالخيراتِ والخُلودِ في الجنَّاتِ، والنَّاجونَ من الشُّرورِ والمكروهاتِ .

*ما مِن مُسلمٍ ولا كافرٍ ولا مُطيعٍ ولا عاصٍ في الدُّنيا إلَّا وهو مُتقلِّبٌ في نِعمةِ الله تعالى؛ يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى :وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ فرحمةُ الله أَوْسَعُ من ذلك الكَوْنِ الهائلِ الَّذي خَلَقَه، والَّذي لا يُدرِكُ البشَرُ مَداه .

*أَصْلُ كلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ الخوفُ من الله تعالى، يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى :وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ؛ فليس كُلُّ أَحَدٍ يَقْبَلُ هُدى الله ورحمتَه، وإنَّما يَقبَلُ ذلك ويَنقادُ له، ويَتلقَّاه بالقَبولِ الَّذينَ يَخافونَ من الله تعالى ويخشَوْنَه، وأمَّا مَنْ لم يَخَفِ اللهَ، ولا المُقامَ بين يدَيْه، فإنَّه لا يَزدادُ بها إلا عُتُوًّا ونُفورًا، وتقوم عليه حُجَّةُ الله فيها .

* لا سعادةَ ولا فلاحَ إلَّا باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى :فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

* قوله :فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ فيه تَعليمٌ لكيفيَّةِ اتِّباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبيانٌ لعُلوِّ رُتبةِ مُتَّبعيه، واغتنامِهم مَغانمَ الرَّحمةِ الواسعةِ في الدَّارينِ إثرَ بيانِ نُعوتِه الجليلةِ، والإشارةُ إلى إرشادِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم بالأمْرِ بالمعروفِ، والنهيِ عن المنكرِ، وإحلالِ الطيباتِ، وتَحريمِ الخبائِثِ، أي: فالَّذين آمنوا بنُبوَّتِه وأطاعوه في أوامرِه ونواهِيه .

* قولُ الله تعالى :الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ، الرَّسولُ- في اصْطِلاحِ الشَّرعِ- أَخَصُّ من النَّبيِّ، فكُلُّ رسولٍ نَبيٌّ، وما كُلُّ نبيٍّ رسولٌ؛ ولذلك جَعَلَ بعضُ المفسِّرين نُكْتَةَ تقديمِ الرَّسولِ

على النَّبيِّ هنا كَوْنَه أَهَمَّ وأَشْرَفَ، أو أنَّهما ذُكِرا هنا بمعناهما اللُّغويِّ .

* قال تعالى :وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، المرادُ من الطَّيِّباتِ الأشياءُ المُستطابةُ بحسَبِ الطَّبعِ؛ وذلك لأنَّ تناوُلَها يُفيدُ اللَّذَّةَ، والأَصْلُ في المنافعِ الحِلُّ؛ فكانتْ هذه الآيةُ دالَّةً على أنَّ الأصلَ في كلِّ ما تَستطيبُه النَّفسُ ويَستلِذُّه الطَّبْعُ: الحِلُّ، إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ كُلُّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ وتَستقذِرُه النَّفسُ كان تناولُه سببًا للألمِ، والأصْلُ في المَضارِّ الحُرْمَةُ، فكان مُقتضاه أنَّ كلَّ ما يَستخبِثُه الطَّبْعُ فالأصْلُ فيه الحُرْمَةُ إلَّا لدليلٍ مُنفصِلٍ .

* قولُ الله تعالى :وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ يدُلُّ على أنَّ الأصلَ في المَضارِّ ألَّا تكونَ مشروعةً؛ لأنَّ كلَّ ما كان ضررًا كان إِصْرًا وغُلًّا، وظاهرُ هذا النَّصِّ يَقتضي عدمَ المشروعيَّةِ .

دِينُ الإسلامِ سَهْلٌ سَمْحٌ مُيَسَّرٌ، لا إِصْرَ فيه ولا أغلالَ، ولا مَشقَّاتِ ولا تَكاليفَ ثِقالٌ، يُبيِّنُ ذلك قولُ الله تعالى :وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .

* قولُ الله تعالى :فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فيه تنويهٌ بعَظيمِ فَضْلِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ ورضِيَ اللهُ عنهم، ويَلْحَقُ بهم مَنْ نصَرَ دينَه بعْدَهم .

* قوله :وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ فيه تَشبيهُ حالِ المُقتَدِي بهَدْيِ القرآنِ، بحالِ السَّاري في اللَّيلِ إذا رَأى نُورًا يَلوحُ له اتَّبعَه؛ لعِلمِه بأنَّه يجِدُ عِندَه مَنجاةً مِن المخاوفِ، وأضرارِ السَّيرِ .

يأمرُ اللهُ نَبيَّه محمدًا ﷺ أن يقولَ للنَّاسِ جَميعِهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي رسولُ الله إليكم كُلِّكم، الذي له وحدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا معبودَ بِحقٍّ إلَّا هو وحدَه، بِيَدِه وحدَه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم، فآمِنوا- أيُّها النَّاسُ- بالله ورَسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، النَّبيِّ الأمِّيِّ، الذي يؤمِنُ بالله وكَلِماتِه، واتَّبعوه؛ لعلَّكم تهتدونَ. لَمَّا ذكر اللهُ تعالى لموسى- عليه السلام- صفةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأخبَرَ أنَّ مَن أدرَكَه وآمَنَ به، أفلح- أمَرَ تعالى نبيَّه بإشهارِ دَعوَتِه ورسالَتِه إلى النَّاسِ كافَّةً، والدُّعاءِ إلى الإيمانِ بالله ورسولِه وكَلِماتِه، واتِّباعِه .

وأيضًا لَمَّا دعا أهلَ التَّوراةِ مِن بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِه، وكان ربَّما توهَّم مُتوهِّمٌ أنَّ الحُكمَ مَقصورٌ عليهم- أتى بما يدلُّ على العُمومِ .

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرَّسولَ الأُمِّيَّ، استطرَدَ بتذكيرِ بني إسرائيلَ بما وعَدَ اللهُ به موسى عليه السَّلام، وإيقاظًا لأفهامِهم بأنَّ محمدًا ﷺ هو مِصداقُ الصِّفاتِ التي عَلَّمَها اللهُ موسى . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا أي: قلْ- يا مُحَمَّدُ- للنَّاسِ كُلِّهم: يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى جَميعِكم؛ مِن العَرَبِ وغَيرِهم، ولم أُرسَلْ إلى بعضِكم دونَ بَعضٍ . كما قال تعالى :وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وقال سبحانه :وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وقال عزَّ وجلَّ :تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا وقال تبارك وتعالى :وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: أُعطيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأيُّما رجلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ

وعن أبي هُريرةَ ﷺ، عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قال : والذي نَفسُ محمَّدٍ بِيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النَّارِ .

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أي: إنِّي رسولُ مَن له وَحدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما، وله وَحدَه تدبيرُ ذلك، والقيامُ بتَصريفِه . كما قال تعالى :وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وقال سبحانه :تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أي: لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، وحدَه دونَ ما سواه . كما قال تعالى :ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

يُحْيِي وَيُمِيتُ أي: هو وَحدَه الذي بيَدِه إحياءُ الخَلقِ وإماتَتُهم . كما قال تعالى :الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ

وقال سبحانه :هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وقال ﷻ :أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

وقال جلَّ جلالُه :أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى

واقتَدُوا- أيُّها النَّاسُ- بهذا الرَّسولِ، وأطيعوه؛ لأجلِ أن تهتَدُوا إلى الحَقِّ . كما قال تعالى :قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَّ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُّ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَّ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

على الخلقِ كلِّهم اتباعُ محمدٍ ﷺ فلا يعبدونَ إلا الله، ويعبدونَه بشريعةِ محمدٍ ﷺلا بغيرِها، قال تعالى :وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه الأوصافِ الثَّلاثة: تذكيرُ اليَهودِ، ووَعظُهم؛ حيث جحَدوا نبوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وزعموا أنَّه لا رسولَ بعد موسى، واستعظَموا دعوةَ مُحَمَّدٍ، فكانوا يعتقدونَ أنَّ موسى لا يُشبِهُه رَسولٌ، فذُكِّروا بأنَّ اللهَ مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو واهِبُ الفَضائِلِ، فلا يُستعظَمُ أن يُرسِلَ رَسولًا، ثم يُرسِلَ رَسولًا آخَرَ؛ لأنَّ المُلكَ بيَدِه، وبأنَّ اللهَ هو الذي لا يُشابِهُه أحدٌ في ألوهيَّتِه، فلا يكونُ إلهَانِ للخَلقِ، وأمَّا مَرتبةُ الرِّسالةِ فهي قابلةٌ للتعَدُّدِ، وبأنَّ اللهَ يحيي ويُميتُ، فكذلك هو يُميتُ شريعةً ويُحيي شريعةً أخرى، وإحياءُ الشَّريعةِ إيجادُها بعد أنْ لم تكُنْ؛ لأنَّ الإحياءَ حَقيقَتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثم يحصُلُ مِن هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المُشركينَ بتعَدُّدِ الآلهةِ وبإنكارِ الحَشرِ .

قوله تعالى :الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ دلَّ على أنَّه لا يُشرِّعُ للخلقِ، ويأمرُهم وينهاهم، ويحرِّم عليهم إلا الملكُ، الذي هو نافذُ التصرُّفِ نفوذًا مطلقًا، وله الكلمةُ العليا، وهو فوقَ كلِّ

شيءٍ .

بالرَّسولِ والنبيِّ، بدأ به، ثم أتبَعَه بالإيمانِ بالرَّسولِ، ثم أتبَعَ ذلك بالإشارةِ إلى المُعجِزِ الدَّالِّ على نبوَّتِه، وهو كونُه أميًّا، وظهر عنه من المُعجِزاتِ في ذاتِه ما ظهَرَ مِن القُرآنِ الجامِع لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، مع نشأتِه في بلدٍ عارٍ مِن أهلِ العِلمِ، لم يقرأْ كتابًا ولم يَخُطَّ، ولم يصحَبْ عالِمًا، ولا غابَ عن مكَّةَ غَيبةً تقتضي تعلُّمًا . قولُ الله تعالى :فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الإيمانُ باللهِ: الإيمانُ بأعظَمِ صِفاتِه، وهي الإلهيَّةُ المتضمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّاتِ، والإيمانُ بالرَّسولِ: الإيمانُ بأخَصِّ صِفاتِه، وهو الرِّسالةُ، وذلك معلومٌ مِن إناطةِ الإيمانِ بوَصفِ الرَّسولِ دونَ اسمِه العَلَم .

الاستماع للقرآن والذكر

{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)} [الأعراف]

{فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}: الاستماع: الإصغاء إلى تلاوته؛ بقصد وبنية. {وَأَنْصِتُوا}: الإنصات: السكوت، وعدم الكلام مع الاهتمام. {لَعَلَّكُمْ}: لعلَّ: للتعليل. {تُرْحَمُونَ}: أيْ: إذا استمعتم إلى القرآن، وأنصتم، واتخذتم الأسباب الأخرى للرحمة، وطلبتم العون من الله؛ فقد ترحمون.

وبعد الاستماع إلى القرآن، والإنصات إليه؛ عليكم بذكر ربِّكم؛ تضرعاً، وخيفةً.

{وَاذْكُر رَبَّكَ}: والذكر: هو حضور الشيء للفكر، أو العقل، والذكر يكون باللسان، ويكون في النفس؛ أيْ: يتذكر الشيء في عقله، ويفكر به، والذكر يشمل الصلاة، والتسبيح، والتهليل، والحمد، والثناء، والدعاء، وقراءة القرآن، كلها من وسائل الذكر. {تَضَرُّعًا}: بذلٍّ، وخشوع. {وَخِيفَةً}: خوفاً، وخشية، وخاصَّةً حين تلاوة آيات الوعيد، والإنذار. {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}: من دون صوت مرتفع؛ كأن تسمع نفسك فقط، دون الغير، وفوق السر. {الْجَهْرِ}: نوعان: جهر مقبول، وهو دون الجهر، وجهر غير مقبول: حين يتحول الذكر إلى إزعاج الآخرين. {بِالْغُدُوِّ}: من الفجر إلى طلوع الشمس، والإبكار من طلوع الشمس إلى الضحى،

والأصال: من العصر إلى غروب الشمس. {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}: لا: الناهية. {مِنَ الْغَافِلِينَ}: عن ذكر ربهم، أو عن صلاتهم. الغافلين: جملة اسمية؛ تدل على الثبوت؛ أيْ: باستمرار، ودوام على الفعلة؛ لأن المؤمن قد يغفل إلى فترة، ثم يعود إلى ذكر الله.

التفسير المنير – الزحيلي :

{فَاسْتَمِعُوا} الفرق بين السّمع والاستماع: أنّ الأول يحصل ولو بغير قصد، والثاني لا يكون إلا بقصد ونيّة. {وَأَنْصِتُوا} الإنصات: هو السّكوت للاستماع، من غير شاغل يشغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ. {تَضَرُّعاً} تذلّلا وإظهارا للضّراعة، أي الخضوع والضّعف. {وَخِيفَةً} خوفا وخشية من الله وعقابه. {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} أي التّوسّط في الذّكر دون الجهر برفع الصّوت، وفوق السّر والتّخافت. {بِالْغُدُوِّ} جمع غدوة: وهي ما بين صلاة الغداة (الفجر) إلى طلوع الشّمس. {وَالْآصالِ} جمع أصيل: وهو العشي ما بعد العصر إلى غروب الشمس، والمقصود: الذّكر أوائل النهار وأواخره، أي في كل وقت. {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} أي الملائكة. {لا يَسْتَكْبِرُونَ} لا يتكبّرون عن عبادة الله. {وَيُسَبِّحُونَهُ} ينزّهونه عما لا يليق به. {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} أي يصلّون لله ويخصّونه بالخضوع والعبادة .

سبب النّزول:

{وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ}: أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي هريرة قال: نزلت: {وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} في رفع الأصوات في الصّلاة خلف النّبي ﷺ .

وأخرج أيضا عنه قال: كانوا يتكلّمون في الصّلاة، فنزلت: {وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ} الآية.

وأخرج عن الزّهري قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺكلما قرأ شيئا قرأه.

وقال سعيد بن منصور في سننه عن محمد بن كعب قال: كانوا يتلقّفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئا قرءوا معه، حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف: {وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}. وعقب السيوطي على هذه الرّوايات فقال: ظاهر ذلك أن الآية مدنيّة.

يظهر من هذه الرّوايات أن الآية نزلت في الصّلاة، وهو مروي عن ابن مسعود وأبي هريرة وجابر، والزّهري وعبيد الله بن عمير، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن المسيّب. قال سعيد: كان المشركون يأتون رسول الله ﷺ إذا صلّى، فيقول بعضهم لبعض بمكّة: {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} [فصلت ٢٦/ ٤١]. فأنزل الله ﷻ جوابا لهم: {وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}.

إذا قرئ القرآن الكريم فأصغوا إليه أسماعكم، لتفهموا آياته وتتعظوا بمواعظه، وأنصتوا له عن الكلام مع السّكون والخشوع، لتعقلوه وتتدبروه، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله بسبب تفهّمه والاتّعاظ بمواعظه، فإنه لا يفعل ذلك إلا المخلصون الذين استنارت قلوبهم بنور الإيمان.

والآية تدلّ على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن، سواء أكانت التّلاوة في الصلاة أم في خارجها، وهي عامّة في جميع الأوضاع وكل الأحوال، ويتأكّد ذلك في الصّلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، " إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا، وَإِذَا قَالَ: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧] ، فَقُولُوا: آمِينَ، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا، فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعِينَ " مج

وهذا هو المروي عن الحسن البصري، لكن الجمهور خصّوا وجوب الاستماع والإنصات بقراءة الرّسول ﷺ في عهده، وبقراءة الصّلاة والخطبة من بعده يوم الجمعة؛ لأن إيجاب الاستماع والإنصات في غير الصّلاة والخطبة فيه حرج عظيم؛ إذ يقتضي ترك الأعمال.

وأما ترك الاستماع والإنصات للقرآن المتلو في المحافل، فمكروه كراهة شديدة، وعلى المؤمن أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته، كما يحرص على تلاوته والتّأدّب في مجلس التّلاوة.

وتستحب القراءة بالتّرتيل والنّغم الدّالة على التّأثّر والخشوع من غير تكلّف ولا تصنّع ولا تمطيط ولا تطويل في المدود، فقد روى الشّيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «

مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ » وثواب الاستماع كثواب التّلاوة،

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، قَالَ: " مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ، كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تَلَاهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

ثم أمر الله تعالى بذكره أول النّهار وآخره كثيرا، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله تعالى: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} ومعنى الآية: اذكر ربك في نفسك سرّا، بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره، اذكره بقلبك: {أَلَا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} واذكره ضارعا متذلّلا خائفا راجيا ثوابه وفضله، واذكره بلسانك ذكرا متوسّطا بين الإسرار والجهر: {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِها، وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً} والخطاب قيل: للنّبي ﷺ ، وقيل: لمستمع القرآن، والأولى أن يكون عامّا.

وينبغي أن يكون ذكر اللسان مقرونا باستحضار القلب وملاحظة المعاني، فذكر اللسان وحده لا نفع فيه ولا ثواب عليه، فالواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان، وأن يكون الذّكر رغبة ورهبة.

وأنسب الأوقات للذّكر: وقت الصّباح والمساء وهو وقت الغدو والآصال لأنّ بقية النهار للعمل وكسب الرّزق، ولأنّ هذين الوقتين وقتا هجوع وسكون.

جاء في الصّحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا خَرَجْنَا مِنْ خَيْبَرَ فَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ رَفَعَ النَّاسُ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ، وَالاسْتِغْفَارِ، فَنَادَاهُمْ فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " عَلَيْكُمُ السَّكِينَةَ، فَإِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ لَيْسَ بِأَصَمَّ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ رُءُوسِ دَوَابِّكُمْ، وَأَقْرَبُ إِلَيْكُمْ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: " كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ. قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛

فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ. يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ

{وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ} تأكيد للأمر بالذّكر، فهو نهي عن الغفلة عن ذكر الله، والواجب جعل القلب على صلة دائمة مع الله، وأن يشعر القلب الخضوع لله والخوف من قدرته وعظمته إذا غفل الإنسان عنه.

ثمّ أكّد الله تعالى الأمر والنّهي السّابقين بما يرغّب في الذّكر، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ..}. أي إنّ الملائكة المقرّبين من الله، لا يتكبّرون عن عبادة الله، وينزّهونه عن كلّ ما يليق بعظمته وكبريائه، وله وحده يصلّون ويسجدون، فلا يشركون معه أحدا.

وهذا تذكير بفعل الملائكة، ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، لهذا شرع لنا السّجود هاهنا وفي بقية سجدات التّلاوة، وهذه أول سجدة في القرآن فيشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع، روى ابن ماجه عن أبي الدّرداء عن النّبي ﷺ أنّه عدّها في سجدات القرآن.

والآية ترشد إلى أن الأفضل إخفاء الذّكر، روى أحمد وابن حبّان عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي "

الأدب مع القرآن الكريم أمر مطلوب شرعا، وتعظيم الله واجب عقلا وشرعا، وذكر الله تعالى همزة وصل القلب والنفس مع الله، وشأن الملائكة دوام العبادة والتّسبيح (تنزيه الله عما لا يليق).

والصّحيح وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال وعلى جميع الأوضاع في الصّلاة وغيرها

من آداب الذِكر

قال الله تبارك: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ} وبيان ما اشتملت عليه الآية الكريمة من الجمع بين الأمر بذكر الله والنّهي عن ضدِّه وهو الغفلة، وهذه الآية إضافة إلى دلالتها على ذلك فقد اشتملت على جملةٍ طيِّبةٍ من الآداب الكريمة التي ينبغي أن يتحلّى بها الذّاكر. فمن هذه الآداب:

أوّلاً: أن يكون الذِّكر في نفسه؛ لأنَّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص، وأقربُ إلى الإجابة وأبعدُ من الرِّياء.

ثانياً: أن يكون على سبيل التضرُّع، وهو التّذلُّل والخضوع والاعتراف بالتّقصير ليتحقّق فيه ذِلَّة العبودية والانكسار لعظمة الرُّبوبيّة.

ثالثاً: أن يكون على وجه الخيفة أي الخوف من المؤاخذة على التّقصير في العمل، والخشية من الرد، وعدم القَبول، قال الله تعالى في صفة المؤمنين المسارعين في الخيرات، السّابقين لأرفع الدّرجات: {وَالَّذِينَ يُؤْتونَ مَا آتوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله " الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ " أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قَالَ: " لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ - " أَوْ " لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ - " وَلَكِنَّهُ " الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ " حم

رابعاً: أن يكون دون الجهر؛ لأنّه أقرب إلى حسن التفكُّر، قال ابن كثير رحمه الله: "ولهذا قال: {وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ} وهكذا يُستحبُّ أن يكون الذِّكر، لا يكون نداءً وجهرًا بليغاً" ، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: " كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرَفًا، وَلَا نَعْلُو شَرَفًا، وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ. قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ. يَا عَبْدَ الله بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله "

خامساً: أن يكون باللسان لا بالقلب وحده، وهو مستفادٌ من قوله: {وَدُونَ الجَهْرِ} لأنَّ معناه: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجهر، ويكون المرادُ بالآية الأمرَ بالجمع في الذكر بين اللسان والقلب، وقد يقال: هو ذكره في قلبه بلا لسانه بقوله بعد ذلك: {وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ} إلاّ أنّ الأوّل هو الأصحّ كما حقّق ذلك شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيرُه من أهل العلم.

وقد نظر له رحمه الله بقوله ﷺ فيما روى عن ربّه أنَّه قال: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"، قال: وهذا يدخل فيه ذكره باللسان في نفسه، فإنَّه جعله قسيمَ الذكر في الملأ وهو نظير قوله: {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} ، والدليل على ذلك أنَّه قال: {بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} ، ومعلوم أنَّ ذكر الله المشروعَ بالغدوِّ والآصال في الصلاة وخارج الصلاة هو باللسان مع القلب، مثل صلاتي الفجر والعصر، والذِّكر المشروع عقب الصلاتين، وما أمر به النبي ﷺ وعلّمه وفعله من الأذكار والأدعية المأثورة من عمل اليوم والليلة المشروعة طرفي النّهار بالغدو والآصال.

سادساً: أن يكون بالغدوّ والآصال، أي في البكرة والعشيِّ، فتدلُّ الآية على مزيَّة هذين الوقتين، لأنَّهما وقت سكون ودعة وتعبُّد اجتهاد، وما بينهما الغالبُ فيه الانقطاع إلى أمر المعاش، وقد ورد أنَّ عمل العبد يصعد أوّل النّهار وآخره فطلبُ الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر.

ففي صحيح مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ. ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ »

سابعاً: النهي عن الغفلة عن ذكره بقوله: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} ، أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه، وفيه إشعارٌ بطلب دوام ذكره تعالى والاستمرار عليه، وأحبُّ العمل إلى الله أَدْوَمُه وإن قلّ.

فهذه سبعةُ آداب عظيمة اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، ذكرها القاسمي في كتاب محاسن التأويل.

تنوّع الأدلّة الدّالة على فضل الذِكر

مرّ معنا فضيلةُ الذِّكر وعظيمُ أجره، وبيان ما أعدّه الله لأهله من جميل الثّواب، وكريم المآب، وحُسن العاقبة، وهناءة العيش، ومرّ معنا شيءٌ يسيرٌ من فوائده العطِرة، وثماره الكريمة اليانعة، وعواقبه الحميدة في الدنيا والآخرة.

ولمّا كان الذِّكر بهذه المنزلة الرّفيعة والدّرجة العالية، فإنّ دلالات النصوص المبيِّنة لفضله جاءت متنوِّعة، وكان مجيئه في القرآن الكريم على وجوه كثيرة، وهي بمجموعها وأفرادها تدلُّ على عظيم شأن الذِّكر وجليل قدره.

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم رحمه الله في كتابه مدارج السّالكين : أنَّ الذِّكر ورد في القرآن الكريم على عشرة أوجه، ذكرها مجملة، ثمّ أورد بعد ذلك تفصيلها. قال رحمه الله:

الأوّل: الأمرُ به مطلقاً ومقيّداً. الثاني: النّهي عن ضدّه من الغفلة والنسيان. الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرّابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة. الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. السادس: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذكرهم له. السابع: الإخبار بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء. الثامن: أنّه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها. التاسع: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم. العاشر: أنّه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

ثم قال رحمه الله في بيان تفصيل هذه الأوجه العشرة:

ـ أمّا الأوّل: وهو الأمر به مطلقاً ومقيّداً، فكقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً، هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} ، وقوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً}.

ـ وأمّا النهي عن ضدّه فكقوله: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ} ، وقوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ} .

ـ وأمّا تعليق الفلاح بالإكثار منه فكقوله: {وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}.

ـ وأمّا الثناء على أهله وحسن جزائهم فكقوله: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} إلى قوله {وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}

ـ وأمّا خسران من لها عنه فكقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}

ـ وأمّا جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ} وذكر العبد لربِّه محفوف بذكرين من ربِّه له: ذكر قبله به صار العبد ذاكراً له، وذكر بعده به صار العبد مذكورًا، فذكر الربّ لعبده نوعان: نوعٌ قبل ذكر العبد لربِّه، ونوعٌ بعده.

ـ وأمّا الإخبار عنه بأنّه أكبرُ من كلِّ شيء، فكقوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ} .

ـ وأمّا ختم الأعمال الصالحة به، فكما ختم به عمل الصيام بقوله: {وِلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ، وختم به الحجّ في قوله: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِككَمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكَمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً} ، وختم به الصلاة بقوله: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} ، وختم به الجمعة بقوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا، وإذا كان آخرُ كلام العبد أدخله الله الجنة.

ـ وأمّا اختصاص الذّاكرين بالانتفاع بآياته، وهم أولو الألباب والعقول، فكقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِم}.

ـ وأمّا مصاحبته لجميع الأعمال واقترانه بها وأنّه روحها، فإنّه سبحانه قرنه بالصلاة كقوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} ، وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج ولبّه ومقصوده، كما قال ﷺ : "إنّما جُعل الطواف بالبيت والسعيُ بين الصفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر

الله". وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. فقه الأدعية والأذكار

جدول المحتويات



آيات

دروس رمضان

